مَناسِف أَدبيّة

(حكايات فكاهية ساخرة)

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٩٢٢/ ١١ /٢٠١٣)

٨١٣,٩

السعودي، أحمد عطية

مناسف أدبية: حكايات فكاهية ساخرة/ أحد عطية السعودي_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع،٢٠١٣.

(١٨٤) ص

ر.أ: (٣٩٢٢/ ١١ /٢٠١٣).

الواصفات : /القصص العربية // العصر الحديث/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9975-77-190-4 (ردمك)



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

سلسلة الأدب السّاخر

مَناسِف أدبيّة

(حكايات فكاهية ساخرة)

- تَرْصُد الهُموم، وتُضمِّد الجِراح
- تُعْلي قِيَمَ الإخاء والحِوار والتَّحضُّر
- تُعمّق الحُبّ للبلد، والانتماء للأمّة
- تَسْخَر من الواقع المُرّ والمظاهر الزّائفة

بقلم:

د. أحمد عطية السُّعوديّ



دار المأمون للنّشر والتوزيع



طُبع بدعم من وزارة الثقافة

2013

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي "المناسف الأدبية"!

الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، ليس كتاباً في الطبخ والنفخ، فأنا من الذين لم يتعلموا طهي الطعام، بل تعلّمتُ الطَّهي بالأقلام، وتلك هي صناعتي، ومِلعقتي وصَحْني وقِدْري، وإنْ شئتَ فقل: إنّها قَدَري!

الكتاب عزيزي القارئ، حكايات وُشّيت بحلة الأدب، ونكهة السّخرية، فيها من "المَنْسَف" الأردني شكله المغري، ومذاقه الشّهي، ولا غرو فالمَنْسَف سلطان مهيب، غير أنّه ليس مُتوّجاً، إنّه سلطان على الأمعاء، وسلطان على الأصدقاء، وسلطان على ذوي النفوذ والثراء، لا تكاد تُقضى حاجة إلا به، فهو باب المعدة، والمعدة باب الوظيفة، والوظيفة باب المناصب الرفيعة، والمكاسب الوفيرة!

والمَنْسَف يفعل في عالم الاجتماع ما لا يفعله "الهَريس"، أو "الكُشري"، أو "المسقوف"، ويبلغ في مدى التأثير والإقناع ما لا تبلغه "الكبسة"، أو "العَصيدة"، أو "الحريرة"، وهو مع ذلك لذيذ في كلّ فم، ولا يعدل لذّته "هامبورغر"، ولا "بيتزا"، ولا "سوشي"، ولا "تشكن تكا"!

وإذا أردتم الدليل فاقرأوا هذه الحكايات على لسان راويها ابن الفلاح النَّشْمي!

(١)

دكتوراة مع مرتبة المَرَق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

باسم الله فاتحِ البركات أفتتحُ هذه السّلسلة من الحلقات، وأزفّ إلى القرّاء الكرام قِطَعاً أدبية مدبّجةً بالبيان، مكلّلةً بهمّ الإنسان، مُوشّاةً بالطُّرفة الماتعة، موشّحةً بالوَخْزة اللاذعة.

وإذا سأل سائلٌ عن أصْلي وفَصْلي، وهُوّيتي ومَعْدِني، وقال:

- مَنْ هذا الذي يزعمُ أنّه ابنُ الفلاح النَّشْمي؟

فأقول: إنني واحدٌ من بني جِلْدَتِكم، أسكنُ معكم، وآكلُ الطعام، وأمشي في الأسواق، وأشعرُ بما تشعرون، وأنا وأنتم في الهمّ شرق!

غيرَ أنني خبيرٌ بالمناسف، أهلِها وفِعْلِها، خبرتُها منذ أربعين سنة، ولو كانت تُمْنح فيها شهادات لكنتُ من حملة الدكتوراة في المنسف البلدي مع مرتبة الشَّرف الأولى، أو قُلْ: المَرَق الأولى!

أيها الأعزاء،

المَنْسَف تاج الكرم الأردنيّ، يتألف قوامُه الرشيق من اللحم البلدي، واللبن الجَميد، والأرز الرَّقيق، وتُضاف إليه المحسّنات البديعية كالصنوبر والبقدونس!

والمَنْسَف ضاربٌ في جذور التاريخ وقُدور العرب، وكان يسمّى "المَضيرة" قبل عصر العولمة، وكان آكلو المضيرة يُجْهزون على اللحم أوّلاً، ثم يُقبلون على المرَق ثانياً؛ لأنَّ اللحمَ ظاعن، والمرَق باق!

والمنسف ساحرٌ كالسَّامريّ يجعلُ الخروفَ الذي على "سِدْره" عجلاً له خُوارٌ في صَدرِه، ويظلّ آكلوه عاكفين على خدمةِ صاحبِه، حتى يرجعَ إليهم ضميرُهم الغائب!

وأنا العبدُ الفقير الجائع حين أكتبُ عن المناسف لا أزعمُ أنني طعّام زاد كحاتم الطائي، ولا بيت خبز كالليث بن سَعْد، ولا "مَنْقَعَ" دم كالقاضي شُريح، بل أزعم أنني "مَنْقَعَ" حِبْر لا غير!

وأرجو أن تكون هذه "المناسف الأدبيّة" التي أقدّمها لكم دسمةً خاليةً من الكوليسترول، نقيةً من روائح البترول، تمتّع القلب، وتقري العين جمالاً، والأذن بياناً!

وإذا ما طَعِمَ منها القرّاء أقول لهم: هنيئاً مريئاً!

وأقول قولي هذا، وأمنيتي الاقتصادية الوحيدة أنْ تكونَ مُكوّنات المنسف كلّها بلديّة:

اللحم بلدي، واللبن بلدي، وخبز "الصَّاج" من القمح البلدي الذي لا يعرفُ الموانئ والشّطآن، ولا تعبثُ به الجرذان، ولا يَمُنُّ به الجيران!

ولعلكم أكلتُم من قمح بني دولار، وبني يورو، وبني شانغ مانغ، فهل وجدتم أطيبَ من الخبز البلدي على المنسف؟

هل وجدتم ألذَّ منه في الفم؟

هل وجدتم أخفَّ منه على المعدة؟

تقولون: لم نجد، ولن نجد.

أقول: إذن جَرِّدوا محاريثَكم وفؤوسَكم ومناجلَكم من أغمادها، فليس لها بعدُ أن تُغمدَ!

(٢)

الخَصْر النَّاحِل والبِنْطال السَّاحِل!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أمضيتُ بياضَ نهاري أمسِ قابضاً على يدِ مِحْراثي، في قريتي "وادي الكرم،" أبذرُ الحَبّ، وأشقُّ الأرض، حتّى كَلَّ مَتْني، وتملّكني الإعياء.

ثمّ تولّيتُ إلى الظلّ، وتناولتُ غدائي، وغفوتُ فإذا صوتٌ يُوقظني، فانتبهتُ فإذا هو ابني "حَنْظل"، ومعه فتاة مُتبرّجة، فصرختُ في وجهِه، والكلماتُ تتفلَّتُ من لساني:

اخرجْ يا وَقِح، يا قليلَ الأدب، تمشي مع بنت، وتأتي بها إلى الحَقْل؟!

وأمسكتُ بعصا، ولحقتُ بهما، فوثبا هاربين يتقافزان على الصُّخور تقافزَ الأرانب، واعتلى حَنْظَل صخرةً في أعلى الوادي وناداني:

- رِفْقاً بنا، هذا شاب، وليس فتاة، هذا صاحبي "سُوسُو".

قلت: سُوسَة تنخر عظامك وعظامه، وتصفّي دمك ودمه، يا قليلَ الذّوق، يا عديمَ الحسّ!

أمَا تستحي من مصاحبتِه، أمَا تستحي من شكلِه ولباسِه؟

أمَا تستحي من شعرِه المنفوش، أمَا تستحي من ظهرِه المكشوف؟

أمَا تستحي من خَصْره العاري؟

أمَا تستحي، يا أحمق، يا مُغفّل؟!

قال سُوسُو: شُوْ عَمْ بحاكينا يا حَنْدَل؟

قال حَنْظَل: العَمّ غاضب عليَّ وعليك، ولو ظفرَ بنا لوضع المِحْراث على رقابِنا!

قلت: عَمَى، وحُمَّى، وويلٌ لكما، يا أشباهَ الرّجال ولا رجال!

قال حَنْظَل: كلامك يا أبي، على رأسي، واللهِ ما قصدتُ إيذاءك بإحضاره معي، وعلى كلّ حال، أكلتُ أنا وهو من طعامك لما كنتَ غافياً، أكلنا من العيش والمِلْح!

فأُسْقِطَ في يدي، وقلتُ: أكلا من العيش والملح فلا مجالَ إلا للصُّلح، وناديتُهما:

- تعالا، فأنتما في أمان، وخُذْ يا حَنْظَل، ثوبي المعلّق على الشَّجرة، وألقِهْ على صاحِبك؛ ليسترَ به جسمَهُ.

فرجعا خَجِلين ينظران في الأرض، وجلسا على مقربة منّي، وقد لبسَ "سُوسُو" ثوبي، فبدا فيه كَعَنْز أُلقيتْ عليها عباءة، فقلت:

- يا للخسارة، سمّيتُك حَنْظَلاً؛ لتكونَ رجلاً مُرّاً في مواقفِك، حامضاً في كلامِك، مالحاً سَخيّاً في طعامِك، فإذا أنت ترجعُ إلى أسفل سافلين، ترجعُ إلى الشبّان المائعين التافهين الضَّائعين!

قال: إنّها الموضة يا أبي، وهذا الشّاب مُعْجبٌ بها، وهو يقلّدُ أصحابَ حضارةٍ غَزَت الفضاء، والموضة عُصارة عقول، فهي مِلْكٌ للجميع، وإرثٌ عالميّ بديع!

قلت: ما شاء الله، فيلسوف في فنّ الموضة والميوعـة، تـدافع عـن نفايـات الغرب، تدافع عن التبرّج والسُّفور، والعُري والفُجور.

هؤلاء يا حَنْظَل، لم يأخذوا من الغرب تفكيرَهُ العلميّ، وتقنيتَهُ الصـناعيّة، وتنظيمَهُ الإداريّ، بل لجأوا إلى حاويات نفاياتِه يقتاتون منها الحلاقة المشـوّهة، والملابس الضيّقة، والأظفار الطَّويلة، والسِّيقان العارية، والموسيقى الصّاخبة!

قال سُوسُو: ما عليش عَمُّو، هَلاّ شُو المشكلة؟

قلت (مُنعِّماً صوتي ساخراً):

- لا مشكلة، يا حَبيبي، يا سُوسُو، نحن في البلد بخير، وفي الـوطن العربـي بألف خير، نأكل ممّا نزرع، ونلبس ممّا نصنع، وننعم بما نبتكر ونخترع!

وصلَ الغرب إلى القمـر، ووصـلنا نحـن إلى الزُّهـرة، وأتينـا بهـا جَـرّاً إلى مطابخنا، وقَليناها قَلْياً، وسمّيناها زَهْرة بالفتح، فماذا بعد هذا الفتح؟!

وابتكرَ الغرب الشطائر السّريعة، وسمّاها "ساندوتشات"، فعيّرناهم بالبخل والشّح!

وابتكرنا نحن المناسف الدّسمة، فحلّقَ كرمُنا في فضاء البشرية مع الأطباق الطائرة، حتى فاخرنا بها الأمم المتحدة، ودخلنا بها موسوعةَ "جينيس"!

فما يأتينا زائرٌ من العـالم الأوّل أو العـالم العاشـر إلا فرشـنا لـه السُّـفْرة، وألقينا عليها شاحناتٍ من اللحم والهَبْر، وصَبَبْنا فوقهـا صـهاريجَ مـن المَـرَق والشَّراب، وزيّنا "السُّدُور" برؤوس الخِرْفـان والجِـدْيان، أو قُـلْ وضـعنا عليهـا نصف الثروة الحيوانيّة!

لا مشكلة يا سُوسُو، الأمّة مشتاقة إلى أمثالِك: شاب غاوٍ، خَصْره ناحـل، ويِنْطالُه ساحِل!

واشتدَّ غضبي، واحمرَّ وجهـي، وهممـتُ بطردِهمـا مـرّةً أخـرى، ولكـنني تذكّرتُ العيش والمِلْح!

(٣)

الجهاز مُعَطّل والأجر مُحَصَّل!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

ما طفحَ البِشْرُ على شاشة وجهي، ولا حَلَّ بحَقْلي إلا مرّتين اثنـتين، مـرّة حين قطفتُ أشجارَ الزيتون، ومرّة حين بُشِّرتُ بابنةٍ تحملُ رقم ثمانية!

أمّا الزيتون فَطَعِمَ أهلُ الدار من زيتِه ورَصيصِه، واتخذوه خليلاً لهم علـى مائدتهم الصّباحية مع الزّعتر، وأمّا الابنة فنشأتْ بين إخـوةٍ وأخـواتٍ عشـر، وترعرعتْ في ظلال التين والزيتون، والعنـب والليمـون، واستنشـقتْ روائـحَ الشِّيح والعَرْعَر، والرّيحان والياسمين!

ولّما بلغَتْ ثلاثة أشهر قال قائـلٌ مـن أهـل الـدار يتـولى حقيبـةَ الشّـؤون الصّحية:

– اذهبوا بهـا إلى المستشـفى، واطمئنّـوا علـى سـلامة رِجْليهـا مـن خلـع الولادة، وحذارِ من التباطؤ أو التأخر أو التثاقل، فإنّ ساعةَ تـأخُّرٍ قـد تجعلـها مُعاقة، تعرجُ وتِعثر، لا سمحَ الله ولا قَدَّر.

فلَجَّ أهلُ الدار بصوتٍ واحد: لا سمحَ الله ولا قَدَّر.

ونظرتُ في وجوه مَنْ حضَر، وأسررتُ في نفسي جملـةً مـن مبتـدأ وخـبر، وأتبعتُها بإيجاز حَذْف وقِصَـر: "ذوو الإعاقـة هـم الفئـة الوحيـدة المحظوظـة في العالم، ويا ليتَ لنا مثل ما أوتوا مِنْ .. ومِنْ.. ومِنْ..!

وأسررتُ جُمْلتي في نفسي، ولم أُبْدِها لهم.

ثمَّ عملنا بنصيحة صاحب الحقيبة الصّحية، وركبنا الباص مُبكّرين، فما جلسنا حتى أخذنا حظّنا من الأغاني المزعجة، أو قلْ من زعيق المطربين والمطربات، وعلى الرّغم من ذلك فقد استسلمنا لرغبة السائق ومِزاجه، ما دام أنَّ عينيه لا يوقظُهما إلا هذه الأصواتُ الصّاخبة، وإلا سلّمنا إلى أحد الأودية، وأهدى إلينا كُسوراً لا تُجْبر، وجروحاً لا تبرأ، وأحزاناً لا تُمْحى!

فليطرب السَّائق، ولنذهبْ نحن إلى جحيم الإزعاج، المهمّ هو، وليس الرَّاكب الذي تُقِبتْ طَبْلَةُ أذنه، المهم هو، وليس الرَّاكب الذي أُصيبَ بصداع الشّقيقة، المهم أنْ يسلمَ رأسُه الطَّرِب، ليسلمَ الباصُ المضطرب، ونسلمَ نحن أهل النَّصَب والتَّعَب، وتسلمَ البنتُ الثامنة من خلع الولادة!

وصلنا إلى المستشفى، ودخلنا مع الأفواج الدَّاخلة، ووقفنا أمامَ "المحاسبة" ملتزمين الدّور، ثمَّ مددتُ البِطاقة والأوراق، فقال المحاسب:

- ما اسم الصَّغيرة؟

قلت: زيتونة، وأنا أبوها ابن الفلاح النَّشْميّ.

قال: وماذا تريدُ زيتونة؟

قلت: تريدُ عيادة الأطفال لخلع الولادة.

قال: جهاز التصوير الطَّبَقي مُعطّل، فخذْ أوراقك، مع السَّلامة.

وأخذتُ أوراقي، ومضيتُ إلى عيادة الأطفال؛ ليطمئن قلبي، فقالت الممرضة: صدقَ المحاسب، الجهاز مُعطّل.

ومضيتُ إلى غرفة التصوير الطَّبقي، فقالت الموظّفة: صدقَ المحاسب، وصدقَت الممرضة، الجهاز مُعطّل، عودوا بزيتونة في الأسبوع القادم، مع السَّلامة.

واطمأنَّ قلبي، وازددتُ يقيناً بأنَّ الجهاز مُعطّل، وقلت:

- الخبر مُتواتر يا بنَ الفلاح، صدقَ المحاسب، وصدقَت الممرضة، وصدقَت الموظّفة!

وبينما أمّ زيتونة تجمع أغراضها، والساعة تشير إلى العاشرة صباحاً إذا امرأةٌ تقول لها: إنّها صورّت ابنتَها على الجهاز قبل خمس دقائق!

فهرولت أمّ زيتونة باحثةً عني ثلاثة أشواط بين المحاسبة وعيادة الأطفال، وقالت:

- اذهبْ إلى مدير المستشفى، واشتكِ عليهم.

وصعدتُ الدّرج فإذا شابٌ من العاملين في المستشفى يأخذني بالأحضان، ويذكر فضلاً لي عليه، فضلَ عِلْم، لا فضلَ مَنْسَف، ويسألني، فقصصتُ عليه القَصص، فقال:

- لا تحزن، نجوتَ من المواعيد، ومن المفترين على الجهاز!

ثمَّ أخذَ زيتونة وأوراقها، فَصُوِّرتْ أحسنَ تصوير، وبشّرنا الطبيبُ بسلامتها من الخلع، فمددنا أيدينا، ومددنا يدي زيتونة الصغيرتين الغضّتين:

اللهم احفظْ هذا الجهاز من ألاعيب الناس، ومن افتراء الموظّفين الذين يأخذون رواتبهم آخرَ الشهر فاكهين.

اللهم جمّله بالصبر، فإنّه يُنْعى إلى المراجعين كُلَّ يوم، وهو حيّ يُرْزق ويُصوِّر!

(٤)

أهون موجود وأعزّ مفقود!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

عصفَتْ بوادي الكرم سنةٌ شديدة، جفَّفَت الزّرع، وامتصَّت ما في الضَّرْع، وعضَّتْ أهلَ الوادي بنابِها، فسَعَوا إلى جامع القرية يتضرّعون إلى الله تعالى أنْ يرفعَ البَلاء والغَلاء، وسعيتُ معهم، حتّى إذا أُذِّنَ للجمعة، صَعِدَ الخطيب المنبر، فأنذرَ وحذّر، ورغَّبَ ورهَّب، وأوجزَ وأطنب، ثمّ رفعَ يديه يدعو، ورفعنا أيدينا نردّد: آمين، ونمدّها مدّاً لازماً!

فما مرّتْ أيام حتى زادَ القَحْط، وحَمِيَ الهواء، وتعرَّت الأرض، ورجعتُ إلى نفسي وقلت:

- يا نفسَ ابنِ الفلاح، كيف يُستجاب لدعاء الخطيب، وأنت تعلمين من حاله أنّه يُدخّن السّيجارة تلوَ السّيجارة، ويتغيّب عن صلاة الجماعة، ويسرفُ في الماء إذا غسلَ سيارته أو اغتسل، أو سقى مزروعاتِه أو احتفل، فأنّى يُستجاب له؟

وإذا ابتليَ البلد بمائةٍ من نمطِه، وابتليت الأمّة بألفٍ من طرازِه، وابتليَ العالم بمائة ألف من أمثالِه، وقاسِمُهم المشترك الأعظم أنّهم يسرفون في المال والماء، ويمنعون الماعون والزكاة، فكيف ينْزلُ القَطْر من السَّماء؟

وكيف لو عرَفْتِ يا نفسَ ابنِ الفلاح، أنَّ في العالم اليوم ملايين مثله، بل أشدّ منه، يتواصون بالجشع والطمع، والإسراف والتبذير، ويحسد بعضُهم بعضاً على ما في عقولهم من خراب، وما في بطونهم من مال حرام!

ثمّ اشتدّ غضبي، ورفعتُ صوتي، فإذا جاري في الحقل يسمعني، فقلت (دون مُقدّمة):

- يا جاري العزيز، لقد أفسدَ المسرفون الماءَ عصبَ الحياة، وشريانَ الوجود، ومصدرَ الخِصْب والجمال.

أفسدوا الماءَ الذي جعلَ الله منه كلَّ شيء حيّ، وذكره في كتابه العزيز أكثر من ستين مرّة. أفسدوا الماء الذي تبلغ نسبتُه في جسم الإنسان نحو ٦٥٪، وفي عالم النبات أكثر من ٧٠٪.

لقد أفسدوه حتى تدنَّتْ نسبةُ العَذْب منه إلى ٣٪ فقط!

انظرْ إلى خزّانات البيوت كم يتسرّب منها من ماء صافٍ.

انظرْ إلى صنابير المياه وخطوطِها التي تتعرّض للتكسير والتحطيم، فيُهدر منها الماء العَذْب.

انظرْ إلى الأعراس كم يضيّع أصحابُها من ماء يترقرقُ على الأرض في إعداد الولائم والمناسف.

انظرْ إلى شوارع عمّان والزَّرقاء وإربد، وإلى شوارع مُدن العَرب، كم من الأطنان المائية تسيلُ فيها، والناسُ في حاجة ماسّة إلى قطرة تبلّ الحَلْق، وتروي الظّمأ!

فقال جاري العزيز، (وقد احتدّ):

هؤلاء لا يعرفون أنَّ الماء الذي أنزله الله من السَّماء هو أثمن شيء على وجه الأرض، وهو أغلى من الذّهب والماس، وأغلى من النّفط، وأغلى من كلّ سلعة، وأغلى من كلّ طاقة.

هؤلاء لا يعرفون أنَّ الماء في عالم اليوم مخزون إستراتيجيّ يشكّل قضية كبرى للصراع بين الدول؛ وقد يسبّب الحروبَ في المستقبل.

يا بنَ الفلاح، في العالم اليوم أكثر من (٨٠٠) مليون نسمة من البشر يعانون من فاقة مائية رهيبة، ومدنُ العالم اليوم تنتجُ يومياً مليوني طن من مخلّفات أمعاء الإنسان، وأكثرُ أمراض العالم اليوم مصدرها المياه الملوثة!

فهل رأيت أشدّ سواداً وظلمةً من هذا العالم؟

قلت: وسيظلّ العالم مظلماً إلا إذا نشرنا فيه الضياء بالاقتصادِ في الماء، والتدبيرِ في المال، والترشيدِ في الاستهلاك، والقيام بواجب الشُّكر على نعم الله التي تنثالُ علينا من السَّحاب، فتروي الأودية والهضاب، وتسقي الزّروع، وتحيي اليَباب.

ثمّ قلتُ: تعالَ يا جاري، لنستريح قليلاً، ونشرب الشّاي، وإن شئتَ اللبن.

فقال: بل أريدُ أهونَ مفقود، وأعزَّ موجود!

قلت: إنّك تريدُ الماء إذن، فحيهلا!

(٥)

الفَزْعة في آخر لحظة!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

دارَت الأماني في رؤوس طائفةٍ من شُبّان القرية، فسوّلتْ لهم أنفسُهم بأن يذهبوا إلى "العَقَبة" طلباً للعمل، وحبّاً في السِّباحة والسّياحة، ورغبةً في التمتّع بأكْلِ السّمك في الثّغر الباسم!

ثمّ ركبوا السيّارة، والأماني العِذاب ترسمُ لهم مُسْتقبلاً ضاحكَ الطَّلعة، ساجعَ الطير، فيرى كلٌّ منهم نفسَهُ مسؤولاً في الميناء، يأمر وينهى، ويَسْتقبل ويُودِّع، وفي غَمْضةِ عَيْن يغدو رجلَ أعمال تزدحمُ حولَ فمِه الميكروفونات، وتلاحقه الصّحافة والقَنوات!

وبينما الشّبان في أحلام المروج الخُضر إذا السائقُ يترنّم مع "إسماعيل خضر": "أنا من العقبة يا عيوني، من فوق المركب شوفوني"!

ثمّ يعلن السَّائق وصول السيارة: الحمد لله على السّلامة يا شباب!

نزلَ الشّباب فأدهشتْهم الأسواق المكتظة، والمياه الزّرقاء المتموّجة، والشّواطئ الممتدة.. ثمّ أتوا المسؤول فقالوا:

– يا عطوفة المدير، مسّنا وأهلنا الفقر، وجئنا من قريةٍ بعيدة، فسجّلْ أسماءَنا مع العاملين في الميناء، وأجرك على الله!

قال: أبشروا، وأعطوني بطاقاتِكم الشَّخصيّة.

فمَدَّ كلٌّ واحدٍ منهم يدَهْ إلى جَيْبِه ليستخرجَ بِطاقته، فلم يجِدوا، وامتـدّتْ أيديهم إلى جيوبهم وجنوبهم وحقائبهم، فما وجدوا، قـالوا: يـا ويلنـا، نسـينا بطاقاتِنا!

فَنُكِسُوا على رؤوسِـهم، ولامـوا أنفسَـهم، وعـادوا إلى القريـة بعـدما اقترضوا أجرة الطّريق!

وجاءني موظّف الزّراعة يحملُ بين يديه السَّـماد والأدويـة، ويَعْلُـكُ بـين فَكَّيْه نبأَ الشّبان وما أصابهم من خيبة، فقلت (مُعلِّقاً):

- هؤلاء جزء من ظاهرة شائعة، هي آفة الفَزْعة في آخر لحظة!

قال: ما تعني بالفَزْعة في آخر لحظة؟

قلت: أعني أنَّ بعضَ الناس يتراخى ويتشاغل عن عملٍ ما، أو أمرٍ ما، ثمّ يبدأ في آخر لحظة بالاستعداد واللّحاق كَمَنْ تَنْـزِلُ بـه مُصـيبةٌ مفاجئـة فيفـزع ويُفزِّع الناس، ولاتَ حين مَفْزَع!

قال: فما مظاهر الفَزْعة في آخر لحظة؟

قلت: أنْ يسمعَ الإنسانُ نداءَ الصلاة مثلاً، فيتشـاغل بـالنوم أو بـالكلام، حتى يكاد وقتُ الصّلاة يخرج، ثمّ يهبّ فيتوضّأ بسرعة، فلا يحسـن الوضـوء، ويصلّي بسرعة، فلا يتمّ الرّكوع والسُّجود!

ومن ذلك أنْ يقضيَ الموظّف ساعاتٍ يتشاغلُ بقراءة الصُّـحف، والكـلام بالهاتف، ثمّ ينظر فإذا الدّوام يوشك أنْ ينتهي، فيوقّع بعـضَ المعـاملات علـى عَجَل، ويؤجّل بعضَها الآخر إلى أجَل!

ومن ذلك أنْ يجلسَ المرءُ في بيته متشاغلاً بالتلفاز والمطبخ، ثمَّ ينظر في ساعتِه فإذا موعدُه مع صاحبه يقترب، فيلبس كالمذعور، باحثاً عن الجوارب والحذاء والنّظّارة، ثمّ يخرج مسرعاً لاهثاً، ولكنْ بعد فوات الموعد، وطول انتظار صاحبِه!

ومن ذلك أنْ يعرضَ للمرءِ بابُ خير كفرصة عِلْم، أو حَجّ، أو رعاية يتيم، فيضيعّ ذلك كلّه:

وعاجزُ الرّأي مِضْياعٌ لفرصتِه   حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القَدَرا!

قال موظّف الزّراعة: أنا أعرفُ ناساً يذهبون إلى السُّوق، ليستْ معهم قائمة بحاجات البيت، فيتذكّرون ما طُلِبَ منهم، فلا يهتدون، فيشترون ما هَبَّ ودَبّ من الأكياس والعُلَب!

وأعرفُ ناساً ينفقون ساعاتٍ وساعات، وهم يبحثون عن شهادة، أو وَصْل ماليّ، أو صورة وسط أكوام من الأوراق المبعثرة غير المرتّبة!

وأعرفُ ناساً يذهبون إلى عَمَّان لمراجعة دائرة ما، حتى إذا وصلوا، يفاجأُ أحدُهم بأنّهُ قد نَسِيَ أوراقَهُ في البيت كحال هؤلاء الشبّان المصابين بالخيبة في العَقَبة!

قلت: إنَّ دينَنا الحنيف كَرَّهَ إلينا التّراخي والتّشاغل، والتّسويف والتّواكل، وحبّبَ إلينا النّشاط الدّائب، وأنْ نخطّطَ لحياتنا كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ **[التوبة:٤٦]**، وأنْ نوثّقَ ديوننا وحساباتِنا، وأنْ نُرتِّبَ ما في بيوتِنا من أثاث وأدوات، وأجهزة ومُسْتندات، لكي لا نكون كحاطبٍ في ليلةٍ لَيْلاء، أو خاطب حَمْقاء بَلْهاء!

(٦)

ثورة الصِّغار على المختار!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

جلبتُ يوماً العنبَ والتِّين إلى سُوق القرية، فمـا أتممـتُ تفريـغَ الصّـناديق حتى تناهَتْ إلى مسامعي أخلاطٌ من الأصوات، فشخَصْتُ ببصري، فإذا ناسٌ مجتمعون حول العِيادة، فاقتربتُ وانتحيتُ جانباً بصبيّ عليه مخايل النّجابة، وقلت: ما الأمر يا بُنيّ؟

قال: وديع بن المختار.

قلت: ما له؟

قال: يتشحّط في دمِه داخلَ العيادة!

قلت: يا لطيف، يتشحّط في دمِه! مَن الذي أدماه، وما خبرُ هذه الجموع؟

قال: ضربَهُ أبوه المختـار بعصـا "المخْتَـرة" الغليظـة، فهشَّـمَ وجهـه، وكسَّـرَ عظامَه، ويقولون إنّه في الرَّمق الأخير، فجئنا نحن أولاد صفِّهِ نتظاهرُ احتجاجاً على ضَرْب زميلنا، وانضمَّ إلينا عصبة من الشّباب، وقد طوّقنا العيادة، فلا نسمح لأحد بالخروج أو الدّخول إلا الطَّاقم الطبيّ!

قلت: فَمَنْ قائد هذه العمليّة؟ وماذا تريدون؟

قال: أنا قائدهم، وأصدرُ إلـيهم الأوامـر سـاعة بسـاعة، ونريـدُ أنْ يُنْقـلَ المختار إلى مَخْفِرِ الشُّرطة، ويحاكمَ على فعلتِه الشّنيعة؛ ليكونَ عبرة لكلّ الآباء الوحوش!

قلت: أنا عمّك ابن الفلاح النَّشْميّ، اسمحْ لي أنْ أتدخّل لحلّ المشكلة، فأذهب إلى المختار.

قال: دار المختار محاصرة بعشرات العِصي والفؤوس والمناجل، فلا تحاول فتُعْتَقل!

قلت: أذهبُ أنا وأنت، ونتفاوض مع المختار، وتضع الشُّروط التي تريدها.

فوافق بعد تردّد، وانطلقنا فقال لي في الطريق: يا عمّ، لقد انفجرنا نحن الصّغار، ولم نَعُدْ نصبر على ما نتعرّض له من أشكال العنف والإيذاء كالزَّجر والنَّهر، والشّتم والاستهزاء، فمِنْ زملائنا مَنْ يُحْبَسون في البيوت، ويُحْرمون من الطّعام، ومنهم مَنْ يُضْربون ضَرْباً شديداً مثل وديع، ومنهم مَنْ يتعرّضون للذبح بالسّكاكين في أماكن أخرى غير قريتِنا!

قلت (في نفسي): يا لَلعار، هل قسَت القلوب فهي كالحجارة لا ترقّ؟ هل انتُزعت الرّحمة من النفوس فهي كالوحوش المفترسة؟ ما الذي جناه هؤلاء الأطفال حتى تُفْتحَ عليهم أبوابُ جهنّم؟

قال: أراك صامتاً لا تُعلِّق، كأنّك تؤيّد المختار، وتعتبر انتفاضتَنا نوعاً من الوَلْدَنة والزَّعْرنة!

قلت (وأنا أتلفّت خشيةً من المحاصرة): أنا مع الحقّ، وأنا خطيبُ القرية بالوكالة، وقد ذكّرتُ الناس غيرَ مرّة بالرّفق بالأطفال وحُسْنِ مُعاملتهم، وقصصتُ عليهم قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام الذي تعرّضَ لِعُنْفِ إخوتِه وحَسَدِهم وكَيْدِهم، ثمّ ألقوه في بئر عميقة مظلمة، وجاء قومٌ مُسافرون، فأنزل

أحدُهم دَلْوَهُ في البئر، فتعلّقَ يوسفُ بالحَبْل وخرج، ثمَّ باعوه في مصر بثمنٍ زهيد كأنّه عودُ حَطَب!

فمَنْ يظلم الأطفال فهو كهؤلاء المسافرين التجّار الذين لا قيمة للإنسان عندهم، هؤلاء الذين باعوا طفلاً صار له شأن عظيم، أصبح نبيّاً مرسلاً، وأمسى ملكاً يحكم مصرَ كلّها!

ثمّ وصلنا دار المختار، فأشار بيده إلى زملائه، فسمحوا لنا بالدخول، فقلت:

- يا حضرة المختار، زملاء وديع غاضبون محتجّون، وهم الذين يطوّقون دارك، ويُحْكمون السّيطرة على العِيادة.

قال: ماذا يريدون منّي، الولد ولدي، وأنا حُرّ، وأنا عُمْدة القرية؟

فانفجرَ قائد العملية غاضباً: هذا إنسان، وليس حماراً تركبه وتضربه، وهو ابن القرية، وزميلنا.

وجرَتْ ملاسنة عنيفة بينهما، فتدخّلتُ قائلاً:

- يا حضرة المختار، ابنك وديع وكلّ الأطفال هم أحبابُ الله، بهم تحلو الحياة، ويُسْتَجْلَب الرّزق، وتتنـزّلُ الرّحمة، فلا يحقّ لأحدٍ أن يمدَّ يدَهُ أو لسانَهُ بالسُّوء إليهم، وهم أحبابُ رسولِ الله القائل: "ليس منّا مَنْ لم يَرْحَمْ صغيرَنا".

يا حضرة المختار، أين أنتَ من قولِ الأب الحنون الشّاعر:

وإنّما أولادُنا بينَنا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ
إنْ هبّتِ الرّيحُ على بعضِهم ... تمتنعُ العَيْنُ من الغَمْضِ!

وأين أنتَ من المرأة التي دخلَت النّار في هرّةٍ حَبَسَتْها، فكيف بمَنْ يحبسُ أطفاله، ويريقُ دماءهم؟

ثمَّ جرَتْ مفاوضات شاقّة تمخّضت عن الاتفاق التالي بين طرفي النِّزاع:

١- يعلن المختار اعتذاره الشديد لابنه ولزملائه في ساحة المدرسة.

٢- يسلّم المختار نفسَهُ إلى مَخْفِر الشُّرطة.

٣- يرفع المُنْتَفِضون الحصار عن العيادة ودار المختار فوراً.

٤- يتحمّل المُنْتَفِضون تكاليفَ ما لحقَ بدارِ المختار من أضرار.

٥- يُجري أهلُ القرية التّصويت على الثّقة في المختار في موعدٍ أقصاه شهر!

(٧)

كَبير الجَاهَة وإصلاح العاهة!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

في ليلةٍ من الليالي البِيْض تربّعَ القمر في كبدِ السَّماء، وانبعثَ منه الضِّياء حُزَماً وضّاءة، وخيوطاً مُذهّبة، فصعدتُ إلى سطحِ الدّار، واستلقيتُ مادّاً يديّ ورِجْليّ؛ لأزيلَ ما علقَ بي من وَعْثاء الحَقْل، فأستحمّ بضوء القمر، وأتنشّف بنسيم الوادي!

وبينا أنا في هذه "السَّاونا" البديعة إذا الهاتفُ يرنّ، وإذا صاحبٌ مرموقُ المقام يسلّمُ عليّ، ويدعوني لأكونَ كبيرَ الجاهة في خِطْبة أخيه المهندس، ويُلحّ عليّ، وأنا أتأبّى، وأتعلّلُ بيديّ الخَشِنتين، ورِجْليّ المتصدّعتين، ووجهي الذي لوّحتْهُ الشّمس، ثمّ قلتُ له:

- هذا جوابي فأتِ غيري، وكبِّره، كبَّرَ الله قَدْرَك، ورفعَ مقامَك.

قال: لستُ أرتضي غيرَك، فلا تحرمْنا من رائقِ كلامِك وبيانِك، ولعلَّ كلمةً تقولُها في الجمع الحاشد تردُّ شابّاً شارداً إلى فضيلة العفّة، وترغّبه في الرّباط المقدّس، والميثاق الغليظ، فتسهم بكلماتِك في قَلْع بذور الانحراف من القلوب، واجتثاث العاهات والآفات من النفوس.

فكم من شابّ قد أصابته الأفلام بعاهةٍ في سُلوكِه، وأورثته المخدّراتُ رذيلةً في خُلُقِه، ومزّقته غرفُ الدَّردشة، فهو تائه في كلّ وادٍ يهيم!

قلت: أوَ تجدُ كلماتُ ابنِ الفلاح آذاناً صاغية لدى شبابِ المدينة، وهم المأسورون لألسنة الممثّلين والممثّلات، المبهورون بأقدام الريّاضيين والرياضيّات؟

قال: لو تكلّمتَ أنت، وتكلّمَ أهلُ العلم والأدب لَشَدَّ الشبابُ إليكم رحالَهم، ولما تعلّقوا بفلان وفلانة، ولكنّكم آثرتُم الصَّمت، وعكفتُم على الكتب، وقعدتُم تُنظِّرون!

فتوكّلْ على الله، واستجبْ لمطلبي.

قلت: قد استجبتُ لمطلبك، ورضيتُ بأن أكونَ كبيرَ الجاهة، أتبوّأ هذا اللقب الفخريّ الذي تُبْرمُ له شوارب، وتُمالُ له عُقُل، وتُلبسُ له عباءات، وتُعدُّ له كُروش، وتُنفق عليه قروش!

وسُرَّ الصّاحبُ الفاضل سرورَ مَنْ وُعدَ بهديةٍ ثمينة، وأنبأني عن الموعد والمكان.

فلما كان عصر الجمعة توجّهت الجاهة الكريمة، وحَلَّتْ على أهل العروس، فاستُقبِلتْ بالاحتفاء والتَّرحيب، ثمّ صُبّت القهوة، ووُضعَ الفنجان أمامي، فنهضتُ واقفاً، وقد تَلَبّسني "سَحْبان وائل":

فحمدتُ الله تعالى الذي جعلَ الزواجَ آيةً من آياته الباهرة، ونعمةً من نعمِه الظاهرة، وأودعَ فيه عِبَراً تترى لذوي العقول المفكّرة، وتلوتُ من الذّكر الحكيم قولَهُ تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ **[الروم:٢١]**

وصلّيتُ على المصطفى المختار، وآلهِ الأطهار، وأصحابِه الأبرار، وذكرتُ قولَه ﷺ: "وإنَّ من سُنّتي النِّكاح، فمَنْ أحبّني فليستنَّ بسُنّتي".

ثمَّ خاطبتُ أهل العروس مُعلناً أنّ هـذه الجاهـة الكريمـة جـاءتْ تطلـبُ نسبَهم، وتبغي وَصْلَ الأرحام بالأرحام، وزيادةَ الودّ والوئـام، وعلـى لسـانها حُداءٌ نَديّ ينبعث من الجوانح:

وأعظمُ ما يكونُ الشّوقُ يوماً   إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيامِ!

ثمّ ختمـتُ كلامـي بالتحيـة والسّـلام، وقعـدت، فقـام كـبيرُ المسـتقبلين، فأجابَ الجاهة إلى ما طلبتْ، وشُربت القهوة، وقُرئت الفاتحة، وجِـيء بالجـاتو والعصير والكنافة!

ولَقِيتْ كلمتي استحساناً كبيراً، فحمدتُ الله على توفيقه، وحمدتُ الله مرّة أخرى على أنَّ المناسف قد زحفَتْ عن حفلات الخطوبة، وحلَّتْ محلّها أشـياء خفيفة، لا تكليفَ فيها!

ولولا أنْ يقال جُنَّ كبيرُ الجاهة لَصِحتُ بأعلى صوتي:

- عاشَ "الجاتو" الـذي أنقـذَ خِرْفـان البلـد مـن السّـكاكين، وسـاوى بـين الأغنياء والمساكين!

(٨)

الأفعى على باب ليلى!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

هبطَ عليَّ أمس عِفْريتٌ من الإنس، وجثا على رُكْبتيه، وأسندَ إلى شجرةٍ يديه، وجعل يحملقُ إليَّ من أخمص قدمي إلى مفرق رأسي، وعيناه تدوران حيثُ أدور، وكنتُ ساعتئذ أمارسُ عاداتي الحَقْليّة المحبّبة إلى نفسي: أُصلّي ركعتي الضحى، وأجمع الحطب، وأُشعل النار، وأَعمل الشَّاي!

فابتدرتُه قائلاً، وقد أعطيتُه كأس شاي:

- أراك مُستمتعاً هادئاً، أسرَّكَ هذا الحقل؟

قال: وسرّني ما أعملتَ فيه من عَقْل، وما بذلتَ فيه من عَمَل، ولو نجح المشروع لاتخذتُ من هذا الحقل مُتَنَزّهاً، ولعشتُ فيه مع شقيق الرّوح أليفين لا يروعنا الذُّعر، ولكنّ المشروع أُحبط..

قلت: أيّ مشروع؟ مشروع الزراعة البعلية، أم الحصاد المائي، أم تربية الأغنام، أم ..

قال (مقاطعاً): إنّه مشروع في السَّماء، وليس على الأرض!

قلت: يا لطيف! في السَّماء! متى أصبحتْ للعرب مشاريع تنموية في السَّماء؟ وهم الذين عجزوا عن الاستثمار في بلاد الرَّافدين، وأرض النيلين، وما بين البحرين؟

قال: التي كانتْ سمائي في الهوى صارتْ لقلبي في الغَرام جَهنّما

خانـتْ عُهودي بعدمـا ملّكتُهـــا   قلبي فكيفَ أُطيـقُ أنْ أتبسَّما؟
قلت: ابتسمْ واطـربْ فلو قارنْتَها   قضّيتَ عُمـرَك كُلَّهُ مُتألّما !

قال: لقد تقدّمتُ طالباً يدها، فرفضني أبوها بجملة واحدة:"I am sorry".

يعني يا بن الفلاح، "أنا آسف"، فأُحبط مشروع الخِطْبة، وتبخَّـرَت الأمـاني، وذهبتْ "ليلى" إلى غيري، ذهبتْ ليلى وسيّارتها، ذهبتْ ليلى وأرصدتها، ذهبتْ ليلى وشَقَّتها! فوا لهفي على ليلى!

قلت: يا عفريت الحُبّ، اذهبْ وابحثْ عن بنت البلد، ودعـك مـن ليلـى التي صار حالها كحال هذا الشاي: سكره مستورد، وشـايه الأسـود مسـتورد، وإبريقه مستورد، وكاساته مستوردة، وعـود ثقابـه مسـتورد، ولم يبـق إلا المـاء والنعنع!

وليلاك مثل هذا الشَّاي: أفكارها مستوردة، وأزياؤها مستوردة، ولهجتهـا مستوردة، ومساحيقها مستوردة، ولم يبقَ إلا مكان الولادة!

وما أعجبَك وما أعجبَ العفاريـت أمثالـك، كيـف ترضـون بليلـى الـتي صارتْ ليلةً مظلمة: تدخّنُ السّيجار، وتشربُ الأرجيلـة، وتقـومُ الليـل علـى المسلسلات والأفلام، وتقضي النهار في التسوّق، وملاحقـة الموضـة، وتصـومُ الشهر فالشهر عن الكـلام الطّيـب، وتفطـرُ علـى الغيبـة والنميمـة والثرثـرة، وتربط فمَها ولسانها بالهاتف صباحَ مسـاء كمِصْـعد العمـارة المشـدود بحبـال الفولاذ!

فوا أسفا على ليلى التي تغنّى بهـا الشـعراء ، وأراد لهـا المصـلحون أنْ تكونَ نبتةً يانعة تُسْقى بماء المكرمات، وتكون مدرسةً طيبةَ الأعراق.

وا أسفا على ليلى فقد تمدَّدَتْ على بابهـا حيّـةٌ تسـعى وتتلـوّى، حيّـةُ الدُّخان والمخدّرات، والأفلام والمسلسلات، والبلوتوث و"الشَّات"!

قلْ لها يا عفريت الحبّ، غير آسف ولا نادم: وداعاً ليلـى، فقـد تآكـل رَسْمُك، وجفّ اسْمُك؛ يومَ ذُبتِ في شخصية غيرك من بنـات سـاركوزي وجاكوزي.

قلْ لها: إنَّ وطنك ينتظرك، وأمّتك تنتظرك، فمتى تعودين لتبني الرُّبـوع بأمومتك الحانية، وتربيتك الراشدة، وعقلك الوثّاب، وقلبك المِعْطاء؟

قلْ لها: جدّاتُكِ الماجدات أخرجنَ للعالم خير القـادة، وأمهـر العلمـاء، وأبرع الأدباء، فلا يليقُ بك اليوم أنْ تكوني ضاربةَ طبل في جوقة اللاهـثين وراء السّراب!

قلْ لها: لقد اشتاق البلد وأبناء البلد إلى مناسفك الشَّهية، تلـك الـتي لا يعدلها هامبورغر، ولا بيتزا، ولا سوشي، ولا تشـكن تكـا، وإنْ عُـدْتِ يـا ليلى عُدْنا!

(٩)

الرَّجَّال الرَّاسب في مادة المال!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

انهمرَت السّماء بالماء ذاتَ مساء، فكانت كأفواه القِرَب، وعمَّ الغيثُ الرّبوع والأرجاء، فعدتُ من الحَقْل على عَجَل، ولساني يلهجُ بالذّكر والدّعاء: ربِّ اجعل الناسَ يُغاثون ويَعْصِرون في هذا العام، واجْنُبْهُم وبَنِيْهم أنْ يستدينوا المال، أو يُريقوا ماءَ وجوههم عندَ كُلّ ثَريّ مُختال!

فما وصلتُ إلى الدّار حتى طرقَ طارق، فخرجتُ فإذا هو البَقَّال، فقرّبتُ إليه مِدْفأة الحَطَب، وقلت: ما جاءَ بك في هذا البَرْد إلا خَطْب!

قال: هو ذاك، فقد كثُرَ العِيال، وقلَّ ما في اليد، وضاقَ الحال، وخسرَ الدّكان، وأحتاجُ منك الآن إلى مائة دينار، وسوف أردُّها بعد شهر بالتّمام والكَمال!

قلت: إنّك لتعلمُ أيّ شدّةٍ أنا فيها، فعندي أربعة في الدّار، ثلاثة أطفال وأمّهم، وأربعة تلاميذ في المدرسة، وأربعة طلاّب في الجامعة، وهذه السّلسلة الرّباعية تحتاجُ إلى مصاريف مستمرّة عاجلة، وما عندي دَخْل غير هذا الحَقْل الذي أقضي فيه بياضَ نهاري، وشَطْراً من سواد ليلي!

قال: أنا أخوك البقّال صادقُ الوعدِ إذا وعدت، وَفِيٌّ في الأداء إذا استدنت، أصليّ في الصّف الأول، وأصومُ رمضان، وأقوم ليلَهُ بالتراويح، وأَصِلُ الأرحام، وقد حَجَجْتُ مرّتين، واعتمرتُ مرّتين، ولحيتي وثوبي

ومِسْبَحتي على السُّنة، وعمري اليوم خمسٌ وخمسون سنة، أفلا تشفع لـي هـذه المؤهّلات عندك؟!

قلت: تشفع فأبشر..

وأخذتني الرّأفة بعيالِه، فأخرجتُ له من الوِسَادة مائة دينار، وقلت:

- هذا ما طلبتَ، يسَّرَ الله أمرَك، ودفعَ عنكَ ما أهمَّك!

ثمَّ خرج حامداً شاكراً داعياً، ورجعتُ إلى الوِسَادة مُتفقّداً عادّاً مُغْتاظاً!

ودارَ الزّمن، ومَرَّ شهر، وانتظرتُ ولم يَفِ، ومَرَّ شهران متتابعـان، ومـرّت ستة أشهر، ومَرَّ دَهْر!

وعصفَتْ بداري ضائقةٌ ماليّة، وأحـسّ "سـاعي البريـد" الـذي كـان يـأتيني بالرسائل، ويجلس عندي في الحَقْـل، أحـسَّ بتغيّـر حـالي، واصـفرار عيـالي، فسألني: ما الأمر؟

قلت: فلان البقّال اقترضَ مني مبلغاً من المال، ولم يُعِدْهُ بعد!

قال: ما أرقَّ قلبَك، تعطـي المحتـالَ مالَـك، ولا تُقبِّـل يـدَه؛ فـإنْ لم تفعـلْ رجوتَهُ، وقبَّلْتَ رِجْلَه!

قلت: محتال؟! يا لَضياعَ مالي، وفداحة قراري! كيف عرفتَ أنّه محتال؟

قال: كلُّ مَنْ يأخذ أموالَ الناس ويمـاطلُهم فيهـا، أو يَعُـدُّها حقّـاً لـه، أو ينكرُها فهو لصّ محتال، كذّابٌ بَطّـال، خـدّاعٌ دجّـال، ومـا يأكـل في بطنِـه إلا النّار، وويلٌ له يومَ القيامة من سُوء الدّار!

قلت: والعجب أنَّ هذا وأمثاله لا تـؤثّر فـيهم الـذّكرى، ويتناسـون أنَّ هذه الحياةَ جامعةٌ كبرى، على مقاعدِها ألوانٌ من البشر،

وفيها موادٌّ ومساقاتٌ كثيرة متنوّعة،

والمراقبون على هذه الامتحانات ليسوا بشَراً، بل هم ملائكةٌ يتعـاقبون في الليل والنّهار،

ومساحتُها ليستْ محصورةً في بقعةٍ محدودة، بل تشملُ الأرضَ كُلَّها طُولهَـا وعرضَها، وامتحاناتُها ليستْ فَصْليّة، أو سنويّة، وإنّما هي يوميّة!

وتجدُ من الناس مَنْ ينجحُ في موادّها كلّها كهذا البقّال: فهو ناجحٌ في مادة الكرَم والجود،

ناجحٌ في مادة صلة الأرحام،

ناجحٌ في مادة العلاقات العامة،

ناجحٌ في مادة الصّلاة،

ناجحٌ في مادة الزّكاة،

ناجحٌ في مادة الصّيام،

ناجحٌ في مادة الحجّ،

ناجحٌ في مادة العُمْرة،

غير أنّه راسبٌ رسوباً ذَريعاً في مادةٍ هي عَصَبُ الحياة، وأساسُ الموادّ، إنّه راسبٌ في مادة المال!

قال: فما ترى علامات الفَشَل والرُّسوب في مادة المال؟

قلت: مَنْ يقترض المال ويطلبه من غير حاجة، وهو يشكو ويتـذمّر، فهـو راسبٌ في مادة المال.

ومَنْ يأكل الرِّبا، ولا يُبالي أمِنْ حلالٍ مالُه أم مِنْ حرام، فهـو راسـبٌ في مادة المال.

ومَنْ يأكل حقَّ المرأة في الميراث ظلماً وعدواناً، فهو راسبٌ في مادة المال.

ومَنْ يستغلّ وظيفتَهُ ومَنْصِبَهُ للسّطو على المال العام، فهو راسبٌ في مـادة المال.

وليتذكّر هذا الرَّجَّال وأمثاله أنَّ النبيّ ﷺ قال: "يُغْفرُ للشّهيدِ كُـلُّ شـيء إلا الدَّيْن"!

(١٠)

خَفْقَةُ قَلْب وسَنَة أُولى حُبّ!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أُنشِئتْ في المدينة المجاورة للقرية جامعةٌ للتقنية، فتغشّى الناسَ فرحٌ غامر، وقالوا: هذه الجامعة منارة علم، وبؤرة تنمية، ولنا فيها منافعُ كثيرة، ومآربُ أخرى.

وفرحَ ابني حَنْظَل مع الفَرِحين، وقال:

- يا أَبتِ، ها قد أُفتُتحَت الجامعة، فأرجو أنْ تلّبيَ رغبتي في دراسة لغة العرَب، وأدبهم وبلاغتهم، فانظرْ ماذا ترى؟

قلت: أرى أنْ تذهبَ إلى رئيس الجامعة، وتقولُ له: إنَّ أبي يُقرئك السّلام، فسجّلني في قسم الأدب، فأنا من عائلةٍ جذورها ضاربة في تُرْبة الجاحظ، والبحتريّ، وابن زيدون!

قال: الأمر ليس كلاماً وسلاماً، إنّما هو قوائم قَبول، ورسوم تَسْجيل، ولا ينفع زيد ولا عبيد!

قلت: أجبرتَني يا حَنْظَل، على المرِّ والحَنْظَل، ومُكْرهٌ أخاك لا بَطَل.. وأدخلتُ يدي في الوِسادة؛ لأعطيَه الرُّسوم، فما أمهلني حتى تلقَّفها، وهربَ بها، فصحتُ: واوسادتاه، واعرقَ جبيناه، ثمّ هدّدته: أنت مطرود، فلا تدخلْ عليّ الدار إلا بعد شهر، والله يا ثعلب، لأرينّك نجوم الظهر، أذهبتَ بيضَ عمري، وجعلتَه في رَحى صيّاد!

وغابَ حَنْظل شهراً، وبينما أنا في الحقل إذا كتلةٌ حمراء على هيئة إنسان تزحفُ نحوي، فقلت: أعوذ بالله، أهذا ماردٌ من الجنّ يتمثّلُ لي ليخوِّفَني، ويطردَني من حَقْلي؛ ليقيمَ عليه وطناً بديلاً له؟

أم هو نَيْزك نازل من السّماء أصابَ إنساناً فمسخَه إلى اللون الأحمر القاني؟ أم هو إنسان محكومٌ عليه بالإعدام، وقد عرفَ أني خطيبٌ بالوكالة، فجاءَ لأذكّره بالله قبلَ لحظاتٍ من إعدامِه؟

ثمَّ اقتربَ منّي، ودقّقتُ النظر، فإذا هو ابني حَنْظَل، فقلت:

- يا خراب بيتي، ويا سواد وجهي، أَجُننتَ يا ولد، تلبس قميصاً أحمر، وبنطالاً أحمر، وحذاءً أحمر، وتصبغ شعرَك باللون الأحمر؟

ثمّ أخذتُ أُحدّق فيه، وأتأمّله طولاً وعرضاً، فغلبتني الدّهشة والإثارة، فانفجرتُ ضاحكاً، وأنا أضربُ الأرض بيديّ ورِجْليّ، وأفحصُ كما تفحصُ العَنْز! وأردّد: هذا يوم الضَّحِك العالميّ!

قال: بل هذا عيد الحُبّ العالميّ، اليوم هو "فالنتاين"، اليوم يحتفلُ المحبّون، فيلبسون الملابسَ الحمراء، ويتبادلون الهدايا بالورود الحمراء، ويحملون الأشياء الحمراء، اليوم أنا أحمر في أحمر!

قلت: والله، ما في النَّاسِ أحمر منك! هل أنت عاشقٌ مثلهم، حتى تفعلَ فِعْلَهم؟

قال: أجل، خفَقَ قلبي في أول محاضرة، يومَ رأتْ عيني ظبية، فسرى حُبّها في البُطَيْن الأيسر، ودَبَّ في الاثني عشر، فأنا الآن عضو في الاتحاد العام للعشّاق والمحبين والهُيّام!

قلت: يا سلام، صِرْتَ صيّادَ ظباء بأسنانك المفروقة، وأنفِك المفلطح، وشَعْرِك المُفلفل!

قال: وأتمنى يا أبي، أنْ أموتَ شهيداً!

قلت: الحمدُ لله، رجعَ عقلُ حَنْظَل إليه، الحمدُ لله الذي أخرجَ من صُلْبي مَنْ يتمنى الشّهادة!

قال: إي والله، أتمنى الشّهادة فداءً للمحبوب!

قلت: ويحك، مَنْ علّمَك النُزول إلى الدَّرْك الأسفل من الإسفاف والتّفاهة في شهرٍ واحد؟

قال: علّمني العنَدليب الأسمر، وهو يترنّم: يا ولدي قد مات شهيداً، مَنْ مات فداءً للمحبوب!

قلت: ما شاء الله يا ولد، تسلمْ من العين والحسد، قلب نابض بالحبّ، ونفس تتوق للشهادة!

فما في حقيبتِك هذه الحمراء؟

قال: فيها مجموعة كُتب في الحُبّ..

ومَدَّ يدَهُ وأخذ يقرأ عناوينها: اللّص والكلاب، القطّ والفار، الآنسة س، الآنسة ص، الأرنب الأحمر، ثرثرة في الكفتيريا، أبي فوق الشُّجرة!

قلت: أبوك فوق الشَّجرة يا جاهل؟ أبوك يلعب ويتأرجح؟ أقسم بالله العظيم لتخلَعَنَّ ملابسَك كلّها، ولَتعلّقَنَّ كلّ قطعة على شجرة؛ لتكون عبرة لكلّ أصحاب "الفالنتاين" في القرية!

قال: أرجوك يا أبي، أقبِّل يـديك ورِجْليـك، ولا أعـودُ لقلـة الحيـاء مـرّة أخرى.

قلت: أقسمتُ عليك يا قليلَ الأدب والحياء، وقد سـبقَ السّـيف العَـذل، فَنفِّذْ ثمّ ناقش.

فخلعَ ملابسَهُ، وعلَّقَ على كُلّ شجرة قطعة، وبقـي في الملابـس الدَّاخليـة حتى الليل، فأرسلتُ إلى أمِّه على عَجَل، فجاءتْ تضربُ خدّاً بيد، وتُولول!

قلت: لا تُولولي، فما ترين هو أوّل الغَيْث من حَنْظَل: خَفْقَة قَلْب وسَـنَة أُولى حُبّ!

(١١)

حياة إنسان في رَشْفة فنجان!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

في أحد أيام الخريف فُجِعَ أهلُ القرية والرّيـف بوفـاةِ ابنـةِ المختـار طالبـةِ الطبّ في حادثٍ مُروّع على خطّ الصَّحراء، وتداعى الناسُ إلى تشـييع جنـازة الفقيدة، واتّشحَت القرية بوشاحِ الحـزن، فانفلَقـتْ أكبـاد، وسـالَتْ عَبَـرات، وناحَ الطَّير في جَوِّ السَّماء، وتثاقلَ الزّمن، فكأنّ ساعةَ الدَّفن سنة، وكأنْ لم يمرّ على القرية من قبلُ يومُ مَسرّة، فما تسمعُ إلا النّحيـب، ولا تـرى إلا وجوهـاً مجلّلةً بالأسى، مخضّبةً بالألمِ والحسرة.

ثمَّ جاء الوجهاء، ووُضِعَ فنجـان القهـوة، وعلَـت الأصـوات تُلـحّ علـى المختار المفجوع بأن يسلوَ ابنته، ويعفـوَ عمّـن قتلَهـا في حـادثِ السّـير، وقـامَ رجالٌ يقبّلون وجهَه ويديه، ويذكّرونه بأنَّ الموتَ طريقُ الخلائق مـن عهـدِ آدم إلى الفقيدة الطبيبة المأسوف على شبابها وطبِّهـا، وأنّـه جَمَـلُ المحامـل، وأهـلٌ للصبر والصَّفح، وأنّ الجاهة الكريمة لا تشرب قهوته إلا بـالعفو عـن السَّـائق القاتل!

واستجابَ المختار المصاب، فأعلنَ الصَّفح والمغفرة إكراماً لوجـوه الجاهـة النيّرة، فصفّق الحضور، وتعالى التهليل والتكبير، وشُـربت القهـوة، وأُسْـدِلت السّتارة!

وعدتُ أسفاً مضطرباً، فقال لي جاري أبو دكتور الجامعة:

- أراك مهموماً مغموماً مُذْ حضرنا الصُّلح؟

قلت: كيف لا أُغمّ، بل لا أحزن حُزنَ الخنساء، وقد تناهى إلى مسامعي صوتُ والدتِها الثّكلى، وهي ترثيها بكلامٍ شَجيّ يعتصرُ القلب، ويستمطرُ الدَّمع:

بنتاهُ يا كَبِدي ولوعةَ مُهْجتي قد زالَ صَفْوٌ شأنه التَّكديرُ
والله لا أَسْلُو التلاوةَ والدُّعا ما غرّدَتْ فوقَ الغُصونِ طيورُ
أبكيكِ حتّى نلتقي في جَنّةٍ برياضِ خُلْدٍ زيّنتْها الحُورُ !

كيف لا أُغمّ، بل لا أسكبُ الدّمعَ السَّخين على النفس الزّكية التي ذهبتْ برشفة فنجان، دونَ أنْ يلقى الجاني عقابه، أو ينالَ جزاءه؟

كيف لا أغمّ، بل لا أنفجر، والسَّائق القاتل "أبو عَنْتَر" حُرّ طليق يقودُ عصابة "العناترة" الذين يسفكون دماء الناس على خطّ الصّحراء، خطّ الموت والكَرْب والبَلاء؟

كيف لا أغمّ، بل لا أُجَنّ، والناس كلّهم يعرفون أنَّه قد أزهقَ بطيشِه وإهمالِه ثلاثَ أنفسٍ بريئة قبلَ هذه الفقيدة، وذهبَت الأنفس الغالية كلّها برشفة فنجان؟

قال جاري: حقّاً ما تقول، الناسُ يعرفون أنّه يتجاوزُ الحدّ المقرّر في السّرعة، وأنّه يحملُ هاتفين نقّالين، وينقّلُهما على أذنيه وراءَ المِقْود، وأنّه يطرب، وأحياناً يشرب، ويصفّقُ بيديه، ويدعُ السّيارة لرِجْليه!

قلت: لقد استهانَ "أبو عَنْتَر" وأصحابُه بدماء البَشَر، فأراقوها على الشَّوارع في طولِ البلد وعرضه، حتى أصبحَ بلدُنا سادسَ دولةٍ في العالم في حوادث

السّير، فكأنّنا في حربٍ أهلية طاحنة، نخسر أعزّ الشباب، وأحبّ النـاس، ففـي كلّ شهر يُقتل نحو (١٥) إنساناً، وفي عام واحد قُتِلَ نحو (٩٠٠) إنسان، فبـأيّ ذنْبٍ قُتِلوا، وبأيّ جَريرةٍ فُجِعَ عليهم أهلُهم؟

قال: لا يَصْلُحُ السّائق إلا بوازعٍ من خُلُـقٍ أو دِيْـن، ولقـد أوجـبَ دينُنـا الحنيف على كلّ سائق أنْ يأخذَ بأسباب السّلامة، ومن ذلك: صـيانة المركبـة، والتقيّد بقواعد المرور، واستعمال حِزام الأمان، والتّركيز الواعي أثناءَ القيـادة، وتجنّب السّرعة العالية الطائشة.

قلت: وأوجبَ دينُنا الحنيف علـى كـلّ سـائق ومسـافر أنْ يأخـذَ بمفـاتيحِ النّجاة، ومن ذلك إدامة الصّلة بالله تعـالى، والإكثـار مـن الأدعيـة والأذكـار، وإيقاد شُعْلة الرَّحمة في النفس على الناس، و"مَنْ لا يَرْحـمِ النّاس لا يَرْحمه الله".

ومـنْ يـدري، يـا جـاري، فقـد أكـون أنـا، أو أنـت مـن ضـحايا الخـطّ الصَّحْراويّ، ونذهبُ برشفة فنجـان، فلنـنهضْ، ولنبصِّـر النـاس والسّـائقين، ونذكّرهم بالله واليوم الآخر، ونذكّرهـم بقواعد المرور، وبما أوجبَ الدِّيْن!

(١٢)

أُمّ صالح والماء المالح!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

في حَي القرية الغربيّ تقطنُ امرأة تُكنّى بأمّ صالح، أقامَت الدّنيا ولم تُقْعدها مُذْ توفي زوجُها "حسَن"، فتجشَّمَتْ مسؤولية اثني عشر نفراً، وحملَت الفأس تزرعُ لهم وتَقْلع، وحملَت المنجل تحصدُ لهم وتجمع، وحملَت الحطب لدفء شتائِهم، وحملَت التِّبن والعُشْب لإطعام شياهِهم، وحُمِّلتْ أمراً عظيماً ينوءُ بحملِه الرِّجال، فاصطبرَتْ له، وما تزال!

وتناقلَ أهلُ القرية حكايةَ سقوطِها من الشَّلال العالي يومَ كانتْ تجمعُ الحطب، وهي على شفا الصَّخْر المطلّ على الوادي السّحيق، فانزلَقَتْ رِجْلها، وهوَت إلى الأسفل، ولكنّ الله لطفَ بها، فجعلَ تيار الهواء يرفعُ ثوبها، فكان لها كالمِظلّة، وهبطَتْ بسلام، ولم تُصَبْ بأدنى أذى!

وتفوّقتْ أمّ صالح على بناتِ جِنْسِها ربّاتِ الحِجَال، فَضُرِبَ بها المثل في العِصاميّة وعُلوّ الهمّة، وصارتْ حديثَ المجالس في القرية، حتى وصلَ نبأها إلى داري، فقلتُ ليلةً لأمّ حَنْظل:

- أرأيتِ ما أعجبَ أمّ صالح شقَّتْ طريقَها في الصَّخر، وانبرَتْ تعملُ وتكافح، وتغمسُ لُقْمتَها في الماء المالح، على حين خارَتْ هِمَمُ نساء أخريات تقطّعَتْ بهنّ سُبلُ الحياة كما تقطّعَتْ بها، فَقَبَعْنَ في الزَّوايا يَنْدُبْنَ حظّهنَّ، ويشكونَ "للبثّ المباشر" قِلّةَ حيلتِهنّ، ولا يَدَعْنَ مجلساً إلا أظهرْنَ حاجتهنَّ وفاقتَهنَّ، من غيرِ أنْ يعملْنَ شيئاً مذكوراً كخياطة ثوب، أو تربية دجاجة!

قالت: ولا تنسَ أنَّ أهلَ القرية كُلَّهم مَدِينون لها؟

قلت: أهل القرية كُلّهم مَدِينون لها؟ كيف ذلك؟

قالت: أو ليستْ هي صاحبة "المِطْحَنة" التي تطحنُ حُبوبَهم؟ فلولاها لتجشّموا عناءَ الطريق إلى مطاحن المدينة، وما أبعدَ المدينة، وما أكثرَ مصاريفَها!

قلت: بلى والله، إنّها لذاتُ فضل على الناس في القرية وفي البادية.

قالت: وفضلُها هذا لم يأتِ من فراغ، بل تولَّدَ من قوّة عَزْمها وتصميمِها، وكَدِّ عقلِها ويديها، فطوراً تراها في الحَقْل، وطوراً تراها في المَرْعى، وطوراً تراها في المِطْحنة!

وهي هي: عصابة بيضاء على جَبين وضيء، وثوب أسود على جَسَد مَكْدود، وحذاء قطّعتْهُ رِجْلان وثّابتان لا تعرفان "الباتا"، ولا أحذية الهوانم: حَرَم عطوفته، وعقيلة معاليه!

قلت: والعجب العُجاب أنّها أميّة لم تسمعْ بقاسم أمين، ولا بهدى شعراوي، ولا تدري شيئاً عمّا يَهْذيان به من حقوق المرأة، بل هَدَتْها فِطْرتُها، وهداها ما تسمعُ من مواعظ الجمعة إلى نَيْل حقوقها التي كفلتْها الشّريعة السَّمْحة كالعمل، والتملّك، وحرية الرأي والتعبير.

قالت: وعرفَتْ أمّ صالح أنَّ لها حقّاً، هو أوجبُ الحقوق، وهو العِلْم، فطالبَتْ به، والتحقتْ بمحو الأميّة، واجتازَت الصّفوف الثلاثة الأولى!

قلت: لا ريبَ أنَّ هذه المرأة تفوّقت في العطاء والأداء على كثير من الجامعيّات اللواتي شُغِلْنَ بالمساحيق، وملاحقة الموضة، والثّرثرة مع الجارات!

قالت: وعلى الرّغم من كثرة الجوائز التي تُوزّع في البلد، إلا أنَّ أمّ صـالح لم ترَ في حياتها دِرْعاً تقديرية، ولا جائزة سَخية!

أما يقال: "لكلّ مجتهد نصيب"، فأين نصيب هذه المجتهدة إذن؟

قلت: لو كانت أمّ صالح من أهل اليابـان لكرّمهـا معـالي وزيـر التنميـة المُسمّى "ما هو ناسي ناسُو" بسيارة "تويوتـا"، وثلاجـة "سُـوني"، وغسّـالة "تُوشـيبا"! ولكنْ أمّ صالح منذ عَقْـد ونصـف في المـاء المـالح، والنـاس اليـوم أصـحابُ مَصالح، وعسى أنْ يذكرَها ذاكر عام ألفين وخمسين!

(١٣)

جُحا والضّحك على اللّحى!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

كنتُ في بعضِ الأصباحِ أحملُ المِذْياعَ إلى الحَقْل، فأستمعُ للتّلاوة العَطِرة، والأحاديثِ المشرّفة، والبرنامج الزّراعيّ اليوميّ "الأرض الطّيبة"، ثمَّ يظلّ يصدح ويمرح حتى الظهيرة.

وقد استرعى انتباهي مرّةً خبرٌ بعد نشرة العاشرة ما عجبتُ من شيء عَجَبي له، فقد سمعتُ من فم المِذْياع أنّه ينعى للأمّة جمعاء فريدَ العصر، ووحيدَ الدّهر، وقمرَ الظلماء، وشمسَ المعارفِ الكبرى، ورَجُلَ المهمّاتِ الصَّعبة، والنظرياتِ المعقّدة، أبا الكلام بن شِدْقين!

فقلت لنفسي: مَنْ أبو الكلام بن شِدْقين؟ والله ما سمعتُ به من قبلُ، ولم أقرأْ له كتاباً، أو أقفْ له على اجتهاد، أو أطّلعْ على نظريةٍ وضعَها، أو أعرفْ مهمّةً صَعْبة أنجزَها!

ثمَّ لُمْتُ نفسي: وهل أنتَ محيطٌ بالناس، أخبارِهم وأعمالِهم وإنجازِهم، والبلدُ اليوم ستة ملايين نسمة، فكيف تحكمُ بغير دليل، وكيف ترجمُ بالغيب؟

ثمّ إنّي ناديتُ أمّ حَنْظَل، وقلت: أنتِ تتابعين أخبارَ الطَّبْخ والطّباخين، فهل لأبي الكلام بن شِدْقين محلّ في إعراب الطَّبْخات الشَّرْقية؟

قالت: لا محلَّ له من الإعراب في الطَّبخ والنَّفخ!

وناديتُ: يا أولاد، يا بنات، أصحابُكم يتابعون أخبارَ الفنّ والنُّجوم، هل مَرَّ بهم ذِكْرٌ لأبي الكلام بن شِدْقين في الفنّانين أو المطربين أو المذيعين؟

قالوا: واللهِ ما سمعوا، ولا سمعنا عنه شيئاً!

وناديتُ جاري: أنتَ مِمّنْ يتابعون أخبار العلماء، وأحاديث الأدباء، فهل لمحتَ طيفاً لأبي الكلام بن شِدْقين في الأعلام المشهورين؟

قال: واللهِ، لا طيفَ له، ولا ظلّ، ولا خيال!

فقلت: وهذا لا يكفي، وأخذتُ عيّنةً عشوائيّة من الطَّريق، فناديتُ عدداً من المشاة الذين يحملون أكياسَ التَّبن فوقَ ظهورهم: أنتم تتابعون أخبارَ الزّراعة والمزارعين، فهل تعاملتُم مع مُركّبات زراعيّة، أو أدوية بَيْطريّة من صُنْع أبي الكلام بن شِدْقين؟

قالوا: واللهِ لا نعرفُ عنه شيئاً!

ثمّ اتصلتُ بالإذاعة، وقلت:

– أنتم نَعَيْتُم أبا الكلام بن شِدْقين على أنّه عَلَمُ الأعلام، فهل لكم أنْ تزيدوني من الشِّعر بيتين، فأعرف عنه شيئاً؟

قالوا: لا نعرفُ عنه غيرَ ما جاءنا من أهله في نَعْيه!

ثمّ اتصلتُ بأهلِه فقلت: يرحمُ الله الفقيد، الناس لا يعرفونه، أهو عَلَم مَغْمُور؟

قالوا: بل هو أشهرُ من نارٍ على جَبَل، وأرفعُ من سَنامٍ على جَمَل، وهل يخفى القَمَر؟

قلت: فماذا قَدَّمَ للبلد، وما فَعَل؟

قالوا: كتَبَ صفحةً دسمة في فنِّ الضّحك، وحَلَّـلَ المثـلَ الشَّـعبيّ: "نصـف الألف خمسمائة"، وحَلَّ المسألة الجَدَليّة التي حَيَّرَت الفلاسفة: هـل البيضـة مـن الدَّجاجة، أم الدّجاجة من البيضة، وتوصَّلَ بعد جُهد جَهيد إلى أنَّ البيضة من الدَّجاجة، وليس العكس، واكتشفَ بعد حرب (٤٨)، وعدوان (٥٦)، ونكبـة (٦٧)، أنَّ اليهودَ يكرهون العرب، وله إضافة علميّة على مؤتمر "دافوس"!

قلت: وهل حضرَ مؤتمر "دافوس"؟

قالوا: لا، ولكنّه كانَ يسمعُ من التِّلفاز وقائعَ المؤتمر، فيعلِّقُ علـى ملابـس المؤتمرين وأحذيتِهم وألوانِ ربطاتهم، ويعلِّقُ علـى المتظـاهرين المحـتجّين علـى انعقاد المؤتمر، ويصفُهم بالغوغائيين!

وبذلك أضاف للمؤتمر إضافة علميّـة بتعليقـه الرّصـين، ووصـفه الـدَّقيق المبين!

قلت: يرحمُ الله الفقيد، لو كان في البلد عشرة مثله، لتغيّـر وجـهُ التـاريخ الأبيض، عِمُوا ظلاماً!

ووضعتُ سماعةَ الهاتف، واسغرقتُ في الضّحك، وتذكّرتُ "جُحَـا" الـذي كان يضحكُ على اللّحى، فقد رُويَ أنّه وقفَ في النـاس خطيبـاً، فقـال: أيّهـا الناس، هل تعرفون ما سأقولُ لكم؟ فانقسم النـاسُ قسـمين، فقالـت طائفـة: نعم، نعرف. وقالت طائفة: لا، لا نعرف. فقال: مَنْ يعرف فعليه أنْ يعلّم مَـنْ لا يعرف!

(١٤)

خُبْز مخبوز وماء في الكُوز!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

شهدتُ يوماً سباقاً للضّاحية في مدرسة القرية، وقد احتشدَ الأهالي، واصطفّوا على جانبي الطريق يشجّعون المتسابقين، ويصفّقون ويزغرِدون، ويترنّمون بالأهازيج الشعبيّة.

ثمّ بعد نحو ساعتين أُعلنت النتائج، فكان ابني "هبوب الرّيح" الفائز الأوّل الذي تسلَّمَ دِرْع البطولة، فغبطني أهلُ القرية على تفوّقه، فجزيتُ على ودِّهم بودّ، وعلى ابتسامِهم بابتسام، وأخذتني الأريحية، واستولى عليَّ الفرَح، فقلتُ للمدير وللمعلّمين:

- والله لأكرمنّكم الليلة بطعام العَشاء، فلا يتخلّفْ أحدٌ منكم، فإني أنتظرُكم في الحقل بعد صلاة المغرب.

قالوا: أكرمَك الله، ولا يأبى الكرامة إلا لئيم!

ورجعتُ إلى أهلي، وأشرتُ إلى حَنْظَل وهبوب الرِّيح: أن أعِدَّا "الزَّرْب" للشِّواء، والفوانيس للإنارة، ومسطّح النّجيل للجلوس.

ثمَّ لما أُذّن للمغرب حضرَ الأساتذة، فاستقبلتْهم روائحُ الحَبَق والشّومر والعَوْسَج، وطَعِموا من اللحم المشويّ، واللبن البلديّ، والشّاي السّيلانيّ!

وقلتُ (محادثاً لهم ومُؤنساً، وهم يأكلون): لقد أحسنتم إذ نظَّمتُم بطولة الضّاحية؛ فجيلُ اليوم أحوجُ ما يكونُ إلى ما يشدّ "براغيه"، وينظّم كهرباءَه، ويثبّت أسلاكَه ووصلاتِه!

قال المدير (ضاحكاً): فما لاحظتَ يا بنَ الفلاح النَّشْميّ؟

قلت: لاحظتُ أنَّ بعض المتسابقين يجري كالدّجاجة من غير ما لياقة، ويلهثُ طوالَ الطريق، وقد جفّ منه الرّيق، حتّى خُيِّل إليّ أنّ ما أراه مسابقة بطّ ودجاج!

قال: هؤلاء الذين تتحدّث عنهم أبناء فلاّحين وفلاّحات، فكيف لو رأيتَ بعضَ أبناء المدينة من أصحاب الشطائر و"الشِّبس" والفطائر الذين غلبَتْ على حياتهم الفوضى والضّوضاء؟!

قلت: لطفك يا ربّ بجيل "الخَدَاج" المتقلِّب الذي إذا أُرْسِلَ إلى حاجةٍ لا يأتي بها، وإذا كُلِّفَ عملاً لا يتقنُه ولا ينجزُه، وإذا ساق سيارةً أَسْرع، وإذا كُلِّمَ لا يَسْمع، وإذا أُطْعِمَ لا يَشْبع، وإذا أُعْطِيَ لا يَقْنع!

قال: هذا واللهِ جيل "دَعْدَع" الذي كانت الجدّات يتنبّأنَ بقدومه قبل نهاية التاريخ، والوصول إلى المريخ! هذا هو الجيل الذي يُخشى أنْ تُسلبَ منه البلاد، وهو سادرٌ في شهواتِه ولذّاته!

قلت: واللهِ لم يكن جيلُنا هكذا، بل كنّا ونحن صغار نحملُ عبءَ الحياة، نحرث ونزرع، ونحصُد ونَرْجُد، ونسعى ونَحْفِد، ونتحمّل الجوع والعطش، ونرعى الغنم، والكتبُ بأيدينا!

قال مُعلّم الدِّين: ما لنا نَعيبُ هذا الجيل، والعيبُ فينا؛ لأننـا نحـن الآبـاء والأساتذة، وقد ولدَ هؤلاء على الفِطْرة، فمثَلُهم كمثل العجين تشـكّلُه كيـف شئت، وكمَثَل الصّفحة البيضاء تكتـبُ عليهـا مـا شـئت، وعلينـا أنْ نـربّيَهم، ونصلحَهم، ونهديَهم سواءَ السّبيل.

قلت: فما السَّبيل يا أستاذ، إلى إنهاض هذا الجيـل الحـائر الخـائر، وبَعْـث هِمَمِه، وإشعال عزائمِه؟

قال: أهمّ سبيل أنْ نُربّيَهُ على إقامة شعائر الدِّين، ونعوّده ممارسة الرياضة النافعة، ونوجّهه إلى الحِرَف المِهْنيّة، ونشركه في خدمـة المجتمـع المحلـيّ كقَطْـف الزيتون، وتنظيف البيئة، وزراعة الغِراس، ونَعْقِد له الندواتِ وحلقاتِ النقاش لنحرّضَه على تحمّل المسؤولية.

قلت: أجدتَ والله، هذه هي البداية، ومَنْ لم تكنْ له بداية محرقة لم تكنْ له نهاية مُشرقة، وعسى أنْ يتغيّر هذا الجيل الذي يأكلُ المَنْسَف بالملعقة، ويسـمّي المَرَق عصيراً، ويريدُ أنْ يكونَ كلّ شيء له جـاهزاً مـن خبـز مخبـوز، ومـاء في الكُوز!

(١٥)

كان أبو فَرَّاج وكان!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

لا تُشْرِقُ شمسُ يومٍ جديد حتى يوقظَنا نباحُ كَلْب جيرانِنا الذي يهيّجُه صوتُ جارتِنا أمِّ فَرَّاج، وهي تنبّهُ أولادَها وزوجَها، فتحملهم على الانطلاق إلى أعمالهم، وإخلاءِ أرجلِهم من الدّار!

أبو فرَّاج وأمّ فرَّاج زوجان وفَدا إلى القرية بعد النّكبة الأولى، فاحتضنَهُما الناس، وواسَوْهُما بالمستطاع من المال والمتاع، فأنشأ أبو فَرَّاج يُصنّعُ الأدواتِ الزّراعية من محاريثَ وغرابيلَ ومكاييل، ويعيلُ من عائدِها أُسرتَه، ولكنْ بمشقة بالغة تكلّفُه جهداً كبيراً، وخَشَباً كثيراً.

واقتطعَ من وقته ساعتين كُلَّ يوم يعلّمُ فيهما أولادَ القرية تجويدَ القرآن؛ إذ كان قارئاً مجيداً، قد تعلّم القراءةَ عند شيخ مُتْقنٍ في يافا، وعلّمه ألا يأخذَ أجراً على تعليم كتاب الله!

ولم يُرْضِ هذا الحال أمّ فَرَّاج، فباتَتْ تُعيِّرُهُ الإقتارَ والعَدَم، وتقارنُ حالَ دارِها بجاراتها، فتراها أقلَّ أثاثاً ورِثًّا، وأكثرَ نَفْراً وعَدداً، فتتضايق وتصبّ جامَ غضبِها على زوجِها، وتتهمه بقلّة الحيلة، وفَقْد الهمّة، وبأنّه يعيشُ لغيره: ينفق على والديه، ويعطي إخوته، ولا يردّ سائلاً، أو مُسْتقرضاً!

وحين تذكرُ المساوئ التي تتّهمُه بها، وتجمعُها جمعَ تقديم، تشحذُ عليه لسانها الخَطِر، وتُجفّفُ غُصْنَ أنوثتِها النَّضر، فما يبدأ الصّبح حتى تُسْمِعَهُ

معزوفةَ التأفّفِ والتسخّط، وهو صابرٌ رعايةً لها، وطمعاً في الأجر، وأملاً بـأنْ يُبْدِلَهُ الله خيراً منها، من حُوْر طِيْن الدّنيا، أو حُوْر عِيْن الآخرة!

خرجَ أبو فَرَّاج ذاتَ شتاء إلى الغابة؛ ليجلِبَ الحَطَب، فما راعَهُ إلا انهمارُ الثَّلج الكثيف، فحاول الرُّجوع، ولكنّ عينيه عَشِيَتْ بالثَّلج، فَقَمِرَ فلـم يُبْصـر غيرَ البياض، فظلّ يدورُ ويدور، حتى أنهكَهُ التّعـب، وأهلَكـهُ البَـرْد، فقضـى نَحْبَهُ فوقَ الثلوج البيضاء، لا يدري به أحد.

وظنّتْ أمُّ فرَّاج أنْ قد جاءها الفَرَج بموته، فلمّا انتهـتْ عِـدّتُها تزوّجـت، فما أتمّتْ شهرين مع "أبي جَمْر" حتى أراها نجومَ الظُّهر، وسلبَ ما عنـدها مـن مالٍ مُدَّخَر، وضيّقَ على أولادِها، وألجمَ فمَها، وحاصرَ لسانَها!

وانزوَتْ أمُّ فرَّاج إلى ناحيةٍ كـان أبـو فَـرَّاج يُصـنّعُ فيهـا أدواتِـه، انـزوَتْ تتذكّرُه نادمةً على ما فرّطتْ في حقّه، آسفةً علـى مـا حَمَّلَتْـهُ فـوقَ مـا يُطيـق، فأرسلتُ إليها أمّ حَنْظَل، وحمّلتُها كلاماً قُدَّ من بُرْد الحكمـة، فـدخلتْ عليهـا، وهي تُولول، فهدّأتْ من رَوْعها قائلة:

- ما أعجبَنا نحن النّساء، نُكثر اللعن، ونكفرُ العَشير، حتـى إذا توفّـاه الله تعالى، جمعنا له محاسنَ الأوّلين والآخرين ساعةَ لا ينفعُ الإطراء، ولا ينتفعُ منه المُتَوفَّى!

يا أمّ فرَّاج، زوجُك رحمه الله كان مثالاً للعِصاميّ الذي تركَ أثراً إيجابيّاً في الحياة، وهذه الحياة لا قيمةَ لها إلا بما يتركُ فيهـا المـرءُ مـن آثـارٍ نافعـة كـالأثر العِلْميّ من تعلّم القرآن وتعليمُـه، وفقـه أحكـام الـدِّين، والإبـداع في الأدب الإنسانيّ، والتفوّق في الاختراع التقني.

وكالأثر الدّعويّ القائم على دعوة الناس على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، وإحداث أثر حسَن في الحيّ.

وكالأثر التنمويّ مثل الإنفاق في وجوه الخير، والاستثمار في المشروعات.

وكالأثر الإصلاحيّ مثل إصلاحِ ذات البين، والتصدّي للفتن والإشاعات، ومكافحة الفساد.

قالت أمّ فرَّاج: أمّا زوجي أبو جَمْر أحرقَه الله باسمه وجَمْرِه، فهو من الذين يعيشون ويموتون دون أنْ يتركوا أيّ أثر، فحياتُه خلاصتُها سطرٌ واحد: وُلِدَ فأكلَ فشربَ فنام فلبسَ فمات!

قالت أم حَنْظَل: وأحسنُ الذين يتركون الأثر الإيجابيّ هم الذين يعملون بصمت، دون رياء، أو مَنٍّ أو أذى، وهم الذي يجعلون ما يُقدِّمون من "نقوط" في العُرس، أو هدايا للمرضى، أو نقود للأرحام، أو طعامٍ للناس في العَزاء والضِّيافة والقِرى، يجعلون ذلك كُلَّهُ لله تعالى إكراماً وصدقةً وصِلة، ولا يُبْطلون أجورَهم بالمنّ، أو بتذكير الناس بما أعطوهم على سبيل التَّطاوُل والتّفضُّل، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ **[البقرة:٢٦٤]**

قالت أمّ فرَّاج: يرحم الله أبا فرّاج كان يتمثّل كثيراً بقول الشَّاعر:

أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حَسَنٍ　　ليس الكريمُ إذا أسْدى بمنّانِ!

واللهِ، حديثُك طيّب، يا أمّ حَنْظَل، يبعثُ في النفس السُّلوّ والسُّلْوان، فأكملي.

قالت: والحكماءُ يقولون: إذا اصطنعتَ المعروف فاسترْهُ، وإذا اصطُنع إليك فانْشُرْهُ، وأنشدوا:

يخفي صنائعَهُ والله يظهرُها   إنَّ الجميلَ إذا أخفيتَهُ ظَهَرَا!

وقد ظهرَ جميلُ زوجِك أبي فرّاج مُعلّم القرآن، وكأنّما النبيّ ﷺ يعنيه، ويعني أمثاله من العاملين الصامتين بقوله: "إنَّ الله يحبُّ العبدَ التَّقي الغَني الخَفي". فاستغفري له كلَّ يوم مائةَ مرّة!

(١٦)

غَسْل العار بالدّم والنّار!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

حَلَّتْ بسماء القرية سَحابةٌ سوداء قاتمة عكّرتْ صفوَ اليوم الباسم، وخنقَتْ أنفاسَ صُبْحه، وطمسَتْ شمسَ ضُحاه، كان ذلك حين دوَّى خبرٌ مُفزِعٌ في جَنبات القرية، فركضَ النّاس، وركضتُ معهم، فإذا فتاةٌ مطروحة أرضاً، تشخبُ دماً، وتشهقُ وتُحْتَضر، وتجودُ بحُشاشة نفسها، ثمّ ما لبثتْ أنْ فارقت الحياة، وأضحتْ جُثّة هامدة، فخيّم حزنٌ عميق، واتّشحت القرية بالسّواد.

وقلت (هامساً حانقاً لِمَنْ حولي): بأيّ ذنبٍ قُتِلتْ؟

قالوا: اتّهمها أخوها بارتكاب الفاحشة، فجاءها صباحاً، فأحسَّتْ بنُذُر الشّر والشَّرر في عينيه، فهربَتْ ترجو النّجاة، فلحقَها على الطّريق العام، وطعنها في بطنها وظهرها ثلاثين طعنة، وهي تستغيثُ وتستنجد، وترجوه وتتوسّلُ إليه، وترتعشُ ارتعاشَ المذبوح، فلا يسمع ولا يرقّ، بل يزيد في تقطيع أوصالها بكلّ ما أوتي من قوةٍ وغضبٍ ووحشية!

قلت: الله أكبر، كيف يجرؤ هذا الجاني على قَتْل نفس زكية بتهمةٍ لا دليلَ عليها؟!

قالوا: فما الدّليل الذي تثبتُ به واقعة الزّنا في الشَّرع الحنيف؟

قلت: يقول العلماء: إنّه لا بدَّ في إثبات جريمة الزّنا من أربعة شهود عُدول من الرّجال؛ إذ لا تُقْبل فيها شهادةُ النساء، ولا شهادةُ الفَسَقة، ولا بدَّ أنْ يكونَ الشُّهود الأربعة جميعاً قد رأوا عملية الزّنا نفسَها كما يُرى الحَبْلُ في البئر.

ولهذا شدَّدَ الشّرع في إثبات هذه الجريمة حتى يسدَّ السَّبيل على الذين يتّهمون الأبرياء بعار الدّهر، وفضيحة الأبد لأدنى حَزازة، أو أقلّ خلاف.

قالوا: فإنْ ثبتَتْ واقعة الزنا، فهل للأب أو الأخ أو الزّوج أنْ يقتلَ ويقيمَ الحدّ؟

قلت: يقول العلماء: إنّه لا يحقّ لأحد أنْ يقيمَ الحدّ إلا الحاكم، وكلّ مَنْ يَقْتلُ بيده فهو معتدٍ على نفسٍ حرّم الله ﷻ قتلَها، وعظّمَ شأنها، وجعلَ هدمَ الكعبة حَجَراً حَجَراً – على جلالتِها وعظمتِها وقدسيّتها- أهونَ من قطرات دم إنسان تُراق ظلماً.

ثمّ أُخِذَت الجثّة، واعتقِلَ الجاني، فمضينا إلى الدّكاكين نرقبُ تداعيات الحادث، فما هي إلا مدّة حتى وردَ تقريرُ الطبّ الشرعيّ الذي يفيدُ أنّ الفتاة عذراء، وأنّها بريئة من التهمة التي رُمِيَتْ بها!

وارتفعت صيحاتُ الناس: سوّد الله وجه المجرم.. سوّد الله وجه المجرم.

وتكاثرَ الناس حولنا يَرْوون ما شاهدوا، ويقصّون كيف تلقّوا الخبر، فقال قائل: ذبَحَها، وهو يقول: غسلتُ العار!

فقلت: أكبرُ عارٍ، وأخطرُ جُرْم هو قَتْل النفس، والدّم لا يَغْسِل العار إنْ وقع، بل تغسلُه التوبة، ويغسلُه الحدّ إذا ثبَت، والحَرْقُ بالنّار لا يمحو

الفضيحة، بل تمحوها التوبة، والاستقامة، ولا يحرقُ بالنّار إلا ربُّ النّار. والعار كلّ العار على اليد القاتلة الظالمة، والفم النّمام، والعين الفاسدة!

قال شيخ أبيض اللحية: فما جزاء مَنْ يفضحُ الناس، ولا يسترُهم يا خطيب؟

قلت: لقد ذكر الله ﷻ جزاءه في كتابه الكريم: "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ".

والعجَب أنَّ أكثر مَنْ يشيعون الفاحشة هم من الأقارب والجيران الحُسَّاد الذين يعرفون أسرارَ البيوت، ويطّلعون على عيوبِ ساكنيها، ويعرفون الدّاخلَ إليها والخارجَ منها، فإذا ما وقعَ حدثٌ ما فسرعان ما يُبثّونه عبرَ الهاتف النّقال، يشمتون بالناس، ويدّعون أنَّ عندهم أخبار البلد كلّها.

أيّها الأخوة، ملعونٌ مَن اطّلعَ على أسرار الناس ونشرَها،

ملعونٌ مَنْ فتَنَ الناس، ومشى بينهم بالنّميمة،

ملعونٌ مَنْ أعان على قَتْل النفس بكلمةٍ أو بشقّ كلمة.

والنبيّ ﷺ يقول: "لا تؤذوا عبادَ الله، ولا تعيّروهم، ولا تطلبوا عوراتِهم، فإنّه مَنْ تطلّبَ عورةَ أخيه طلبَ الله عورتَهُ حتى يفضحَهُ في بيتِه".

قال الشَّيخ ذو اللحية البيضاء: أما ترى يا خطيب، كيف أصبح مجتمعُنا يَنْزف دَمَاً، وأصبحنا نَفْقِدُ أغلى النفوس، ونُحْرَم من الأحبة، أما آنَ أنْ يتوقّف المسلسلُ الدّمويّ الرّهيب؟

قلت: يتوقّف بـإذن الله إذا عرفنـا أنَّ الشَّـرف هـو اتّبـاع الشَّـرع، ولـيس الخوف من كلام الناس الذي يؤدي إلى إزهاق الـنّفس الـتي حـرّم الله بـالغَيْرة الكاذبة، والظنّ والرِّيبة، وكلمة فلان، وهَمْسَة فلانة، ووشاية قريـب، وإشـارة جار..

وتبَّتْ شفتا كُلِّ نمّامٍ وتَبّ، وتبَّتْ يدا كُلِّ قاتلٍ وتَبّ!

(١٧)

قَنْص الأشياء بسيفِ الحَياء!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

طلعَ عليَّ من أسفل الـوادي جـاري الفكِـه "أبـو العبـد" يتخلّـلُ الأشـجار والعَوْسَج والعُلّيق، حتى إذا وصلَ نَزعَ عِمامتَـه، وأخـذَ "وضـعية الاسـتعداد"، كمَنْ يريد أنْ يرميَ قُلَّة أو قُنْبلة، وقال:

- اسمعْ يا بنَ الفلاح، سأفجِّر قُنبلة مُدَوّية!

فناديتُ بأعلى صوتي محذّراً كما يفعلُ مُفجِّرو "الدّيناميت": بارود.. بارود!

قال: لا تسخرْ، فالأمرُ حقّ، ووجهُه طَلْق!

قلت: أين وجهُ الحقّ فيه، ولستَ تحملُ بين يديك شيئاً!

قال: أحملُه في ذهني، وأُعلّقه على صدري، أحملُ مَرْثيـة بُكائيـة، وجِداريـة أخلاقيّة، أم تحسبُ أنّك صاحبُ الامتياز الأوحد في أدبِ الوَرْد؟

فليستبشر الوادي بميلاد مُفجِّرٍ جديدٍ للأدب، هو أنا أبو العبـد البُسـتانيّ، النائب الأوّل لأديب الوادي الكبير ابن الفلاح النشميّ!

قلت: عزيزي أبا العبد، ليس الأدب نِقابة تُوزّع مناصـبُها علـى الفـائزين فيها، ولا تجـارة يتنازعُهـا مَـنْ يشـاءُ مـن أهـل السّـوق، إنّمـا الأدب موهبـةٌ تتمخّضُ عن فؤادٍ ذكيّ، ونفسٍ جيّاشة، وقلمٍ سيّال، وكُلُّ مَنْ يكتـبُ ويَعْثُـر، أو يقولُ ويَسْعُل، فاجعلْهُ علـى جِداريـة مَرْثيتـك؛ لأنّـه لا يَحْلِـبُ إلا القَـيْحَ والدَّم كما يقول عميدُ الأدب:

"قال الطّالبُ الفتى لأستاذه الشّيخ: قد كان أدبُ فلانٍ عَذْباً سائغاً، فأصبحَ مُرّاً لا يُطاق. قال الأستاذ الشّيخ لتلميذِه الفتى: ما زالَ يَحْلِبُ لهم ضِرْعَ الأدب، حتى استنفدَ لَبَنَهُ، فهو يَحْلِبُ الآنَ دَماً"!

قال أبو العبد: هذه هي قضيّتي، أنا أريدُ أن أرثيَ الأخلاقَ الكريمة التي سُفِكَ دَمُها من عهد "قابيل" صاحبِ القلب الأسود إلى عهد "أوباما" صاحبِ البيت الأبيض، وأرثيَ الأدبَ الذي شوّهَ ديباجتَهُ الأدعياء، وأرثيَ الأموالَ التي أُكِلَتْ أكتافُها بالباطل، وأرثيَ الجمَال الذي لُطِّخَ وجهُه بالقُمامة!

قلت: إذن فجِّرْ قُنْبلتَك، وأشعلْ مرثيتَك في الذين يَسْلُبون أشياءَ الناس بسيف الحياء؛ لأرى صَنْعتَكَ الأدبيّة!

قال: في الذّكر الحكيم نَهْيٌ شديد عن مُنْكر فظيع يقعُ فيه كثير من الناس، نَهْيٌ عن أخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً، وأكلها بالباطل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ **[البقرة:١٨٨]**

وفي دُنيا الناس اليوم تتبدّلُ أثوابُ الباطل كُلَّ آونة، كما تُبدّلُ الحِرْبَاء لونَها، ومن ذلك إشهار سيفِ الحياء على رقاب الأشياء، كالذي يقعُ بين الأصحاب، وزملاء العمل، إذ ترى "زيدَ بنَ صَيْد" يُبدي إعجابَهُ بأدوات صاحبه من أقلام وكتب وملابس وأجهزة وأحذية، فيسأله عن سعرها وجَوْدتها وصناعتها، ومتى اقتناها، وكيف حصلَ عليها.

فيخجِّلُ زيدٌ صاحبَه، فلا يملكُ إلا أنْ يعطيَهُ شيئاً؛ لما يرى من تلهّفه وتهافته عليها!

وكالذي يقعُ في الأسواق، إذ تجدُ بعضَ المتسوِّقين إذا دخلَ بقّالة أو مَرْكَزاً تجاريّاً، فما أسرع ما يمدُّ يده، يأخذُ شيئاً من التَّسالي، ويتـذوّقُ كُـلَّ معـروض من الرُّطَب و الحلوى والفاكهة، ويُلحّ على التـاجر أنْ يعطيَـهُ شـيئاً مـن هـذه الدنيا المكدّسة عنده، وشعارُه المرفوع: "أنت كريم ونحن نستأهل"!

وكالذي يقعُ لبعض المُتَنـزِّهين الـذين يَنْزلـون في البسـاتين، كـأنّهم جـرادٌ مُنتشر، يَقْطِفون ثمـار أشـجارها، ويتفيّـأون في ظلالهـا، ويُفسـدون حيطانهـا، ويُبْقون فيها فضلاتِ طعامهم، وشعارُهم المُرَفْرف :"كُلْ ولا تَحْمِلْ"! وسـبحان الله، مَنْ أباحَ لهم الأكل، وحرّمَ عليهم الحَمْل؟!

ولقد اشتدَّ رسولُ الله ﷺ في التحذير من رُكوب سـيفِ الحيـاء، وسـلِّهِ في وجه الناس فقـال: "لا يحـلُّ مـالُ امـرئ مسـلمٍ إلا عـن طِيْـب نفـس، فإيّـاكم ورُكوبَ سيفِ الحَياء"!

وقد آن الأوان أن يُغْمدَ هذا السّيف، فلا يُسَلّ علـى أحـد، لا يُسَـلُّ مـن صاحبٍ على صاحبِه، ولا من مُوظّـفٍ علـى زميلِـه، ولا مـن مُتسـوّقٍ علـى تاجر، ولا من مُتَنَزِّهٍ على بُستان!

قال أبو العبد: قد فرغتُ، يا بنَ الفلاح، فكيف ترى المستوى؟

قلت: أمّا مستوى الذين يَقْتَنِصُون الأشياء بسـيف الحيـاء فَمُـنْحَطّ، وأمَّـا مستواك الأدبيّ فجيِّد!

قال: وأنا أرضـى بحكمِـك؛ لأنَّ جيّـدَك وجيـدَ "أبـي حَيَّـان الأندلسـيّ" يَعْدِلان درجةَ ممتاز عندَ غيرِكما من الذين يُغْـدِقُون الـدَّرجاتِ والعلامـاتِ بغير حساب!

(١٨)

كتاب مَهْجُور وقَلَم مَكْسور!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أفاقَت القريةُ ذاتَ صباحٍ على نبأ سارّ، أبهجَ القلوبَ والأبصار، ذلكم هو قرارُ المجلس القرويّ بإنشاء مكتبة عامة، وقد تداعى الناس على المجلس للتبرّع للمكتبة، فتبرّعَ المختار بمَخْزَن، وتبرّعَ تاجرٌ بالخَزَائن، وتبرّعَ رجالٌ بالطَّاولات والكراسي، وتبرّعَتْ عجائز بالبُسُط، وتبرّعتُ بكتب.. ثمّ قامَت لجنةٌ بشراء الكتب، فإذا المكتبة عامرة بأمّات الكتب، وفرائد المجلات والدّوريات، غير أنْ ليس لها قَيِّم!

فجاءني رئيسُ المجلس يسعى قال:

– قد وقعَ الاختيار عليك؛ لتكون ممتحنَ المتقدّمين العشرة الذين جاءوا من القرية وما حولها، ونريدُ أن تُفْرِزَ لنا واحداً بميزان العَدْل دون محاباة، ولا واسطة.

قلت: أوَقعَ الاختيارُ عليّ دون سائر المتعلّمين في القرية؟

قال: نعم، وأنت أهلٌ لذلك، فقد رأينا عندَكَ البيان والتبيين، وديوان المتنبي، ومقدّمة ابن خلدون، وهذه الكتب الثلاثة تشهدُ لك بطول الباع والعُمق والاتساع!

فوافقت، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون، وجعلتُ المسابقة عَلنيّة، وأعلنتُ أنَّ الأسئلة خمسة، وأنَّ الذي يُحَصِّلُ عشرَ نقاط فأكثر فهو الفائز،

وابتدأتُ فسألتُهم عن رَجُل جليلٍ كان قبلَ إسلامه أميراً للروم على "مَعَان"، ثمّ لَمّا أسلمَ قتلَهُ الرُّوم عند ماء "عفرا"، مَنْ هو؟

وسألتُهم عن عائشة الباعونيّـة العالمـة الأديبـة الفقيهـة، أيـن ولـدتْ، وبِمَ اشتُهِرت، ومتى تُوفّيت؟

وسألتُهم عن الأمير الذي دخلَ على قاضٍ فأعجبـه، فأنشـأ يمدحُـه: أيّهـا القاضـي بِقُـمْ..

فخانته القافية فقال: قد عَزَلْناك فَقُـمْ! فذهبَ القاضي ضحية قافيـة! أيـن تقعُ "قُمْ"؟

وسألتُهم عن مؤلّف جامع البيان، وفَتْح الباري، وكليلة ودِمْنـة، ومُعجـم العَيْن، ولِسان العـرب، والحـاوي في الطـبّ. وسـألتُهم عـن الموضـوع العـام لكتاب الكشّاف للزمخشري، ونَفْح الطّيب للمقّري، وتاج العَـروس للزَّبيـدي، وكِفَاحي لهتلر.

فنُكِّسَتْ رؤوس المشاركين، ولم ترتفعْ يدٌ بالإجابة إلا قليلاً! وكان أكثرُهم قد حَصَّلَ ثلاثَ نقاط من خمسَ عشرة! فأعلنتُ عن حَجْب الوظيفة، وإرجـاء المسابقة إلى أجلٍ غير مُسمّى!

وعقدتُ مؤتمراً صحفيّاً قلتُ فيه:

- فُجِعْتُ اليوم بالمتقدّمين للمسابقة، وفوجئتُ بضحالةِ زادِهـم العلمـيّ، وقلّةِ تحصيلِهم المعرفيّ، وعجبتُ أنّهم من أُمّة "اقرأ" التي صارَتْ في هذا الزَّمن لا تقرأ،

وعضَّتْ بالنواجذ على "الفيدو كليب" لا على الكتاب،

وعكفَتْ على الأفلام لا على الأقلام،

وأخْرَجَت القراءةَ من حياتِها وعاداتِها وأنشطتِها،

حتى صارَتْ مَضْرِبَ مَثَلِ السّوء، والنكتة السّخيفة، وانزوَتْ في ذيل القائمة العالمية للقراءة؛ إذْ بلغَ معدلُ القراءة اليوميّ للفرد العربيّ سطرين فقط، على حين بلغ للفرد الروسيّ عشر صفحات، ولليابانيّ عشرين، وللغربيّ خمسين!

وكُلُّ ما يصدرُ في بلاد العَرب من كُتُبٍ ومجلاتٍ وبحوثٍ ونشراتٍ لا يعادلُ ما يصدرُ في دولة أوروبيّة واحدة مثل فرنسا، على الرّغم من اتساع بلاد العرب، وتعدّد جامعاتها، وكثرة مُدنها!

انظروا إلى ركّاب الحافلات عندنا، كم واحداً يمسكُ بكتابٍ يقرأ فيه؟ لو أردتُم التدقيق لوجدتُم أنّ النسبة لا تزيدُ على واحدٍ بالألف على الرّغم من الصُّراخ المدوّي للمتنبي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزَّمان كتابُ!

وانظروا إلى ركّاب الحافلات والقطارات والطائرات عندهم، ما أكثرَ الذين يمسكون بالكتب، ويقرأونها بِنَهَم، ويقضون أوقاتَ سفرِهم فيما ينفع، حتى بلغَتْ نسبتُهم أكثرَ من تسعين بالمائة!

يا للخسارة، أمّة اقرأ لا تقرأ، وهي التي شهِدَ لها الأعداء قبلَ الأحبّاء بأنها كانتْ أستاذةَ العالم في العلم والقراءة والحضارة، ومخطوطاتُها اليوم في الغرب وحدَهُ تبلغ عشرة ملايين مخطوطة، ناهيكم عن ملايين المخطوطات في بلاد العرب، والبلاد الأخرى!

أمَا آنَ للكتابِ المهجور أن يُنْفَضَ عنه الغُبار، ويُحْتضَنَ بين أيدي الصّغار والكبار؟

أمَا آنَ للقلمِ المكسور أنْ يُجْبَر، ويسيلَ بالمِداد إبداعاً وإنتاجاً رائعاً؟

أمَا آن؟

(١٩)

عروسُ يومِك مُطلّقةُ غَدِك!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

نزلَ بالقرية ضيفٌ أوروبيٌّ، عزفَتْ له الأطيار لحنَ الاستقبال، وضمّته أحضانُ القرية ضمّةَ وامق، فما يمرّ في طريقه بأحدٍ إلا قال: عندي يا ضيف الرَّحمن، فيجيبه: حيّاك الله، أنا في ضيافة ابن الفلاح النشميّ!

كان البوسنيّ الأوروبيّ "تولتش" في ضيافتي، أو قُلْ كان في داري فحسب، وكان في ضيافة القرية، ففي الصّباح يُدعى إلى الفطور، وفي الظهيرة يُدعى إلى الغداء، وفي المساء يُدْعى إلى العشاء، حتى مرّت ثلاثة أيام، ولم أصنعْ له أيَّ إكرام غيرَ المنام!

وجاء رَهْطٌ من أهل القرية يقولُ كُلٌّ منهم عبارةً واحدة بألسنة مختلفة: الضَّيف عندي اليوم! فَسَرى فِيَّ الغضب فقلت:

- لا أسمحُ لأحدٍ كائناً مَنْ كان بأنْ يستأثرَ بضيفي، فقد كَفّيتم ووفّيتم!

فما أتممتُ كلامي حتى دخلَ ابنُ أختي، وقال:

- يا خالي، أنت وضيفُك ومَنْ في دارِك مدعوون عندي اليوم إلى طعامِ عُرْسي!

فأُسْقِطَ في يدي، فأذعنتُ لدعوته، وانطلقنا إلى العُرْس، فإذا بيوتُ الشَّعْر مزدحمةٌ بالناس، مزدانةٌ حِبالُها بقطع القماش، مُفْعَمةٌ أجواؤها بالأهازيج المُطْربة، وحركة الصّبيان والغِلْمان!

ثمّ جِيءَ بالطعام، فتعلّقتْ عينا البوسنيّ بِصَفٍّ طويل من الرّجال حاملي صُحون القِرى، حتى إذا وُضِعتْ المناسف أقبلَت الأيدي تمخرُ في عُبابها، وتغرفُ من شرابها، كأنها الزَّوارق السَّريعة في عُرْض البَحْر!

قال البوسني: عجباً، عددتُ مائتين وخمسين صَحْناً، وعددتُ ألفَ كرسيّ، فكم شاةً ذَبَحتْ هذه المؤسسة القائمة على هذا المهرجان الشّعبيّ؟

قلت: القائم على هذا العُرْس شخصٌ واحد، وليستْ مؤسسة، وهو اليوم يَقْري القريةَ كُلَّها، وقد ذبحَ خمسين شاة، وذبحَ ما في جيبه من دنانير وعُمْلة صَعْبة، وعَرَّضَ نفسه للدَّيْن الطويل!

قال: ليس عندنا في أوروبا شيء من هذا، فهل دينُكم يأمرُ بهذا؟

قلت: إنَّ دينَنا يجعلُ العُرْسَ عبادةً تهدفُ إلى ثلاثة أمور: الأول: التقرّب إلى الله ﷻ. والثاني: اتّباع سُنّة النبي ﷺ. والثالث: تكوين الأسرة الصَّالحة أساسِ المجتمع الواعي، والأمّة المتحضّرة. ولم يجعل العُرْس مهرجاناً استعراضيّاً، ولا مناسبةً للّهو والخلاعة.

قال: لو أقامَ أحدُنا مثل هذه الاحتفاليّة في الغَرْب، لتصدّرَ نشراتِ الأخبار، ولَكتَبتْ عنه الصّحف الكبرى: "الغارديان" و"ديل شبيغل" و"لوموند"، ولأصبحَ مثاراً للجَدل، وقد يؤدي إلى استقالة وزير البيئة بضغطٍ من جماعة السَّلام الأخضر؛ لأنّ هذا العُرْس يعطّلُ حركة المرور، ويؤخِّرُ عجلة التنمية، ولأنّ فضلاتِ العُرْس تنشرُ الرّوائح الكريهة، وتملأ الحاوياتِ بالأطعمة الصّالحة للاستهلاك البشريّ، على حين يتمنى ملايينُ الناس في إفريقيا رؤيةَ طعامٍ كهذا في صَحْن مُستدير!

قلت: في ديننا آدابٌ جمّة للعُرْس تحافظُ على البيئة، وتدفعُ عجلة التنمية، ومن ذلك: أنّ دينَنا يمنعُ الإسراف في الطعام، وينهى عن طلب الفاخر من اللّباس والأثاث، ويحذّر من التسبّب في إيذاء الناس، أو تعطيل حركة السَّير، أو الغناء الفاجر الذي يمتدحُ الفاحشة، كما يدعو إلى إهداء ما بقيَ من الأطعمة إلى الأقارب والجيران، ويحرّمُ رَمْيَها في الحاويات، والويلُ لِمَنْ لا يلتزم!

قال: فإذا لم يلتزم العريسُ بآداب دينِكم، فما يحدثُ له؟

قلت: تُنْتَزعُ البركةُ من رزقه، وتَفِرُّ سعادتُه من سريره، وتتحوّلُ راحتُه إلى زوبعة، ويحلُّ الخلاف بينه وبين عروسه لأتفهِ الأسباب، وتتمكّن الشياطينُ منه بالوسوسة، فتحرّشه عليها، وتحرّشها عليه، فيتصادمان، فتلعنُه ويلعنُها، وتضربُه فيطلّقُها، فتصبح عروسُ اليوم مُطلّقةَ الغد!

ثمّ قام البوسنيّ، وجلسَ عند العريس، وهمسَ في أذنه: خالُك خوّفني من الشّياطين، أرجوك أنْ تسحبَ منهم جوازاتِ السّفر، وتقطعَ العلاقاتِ معهم، وتُغلقَ كلّ سفارةٍ لهم، وتمنعَهم من الدُّخول إلى أرضِك، وأجوائِك، ومياهِك الإقليمية!

قال: وكيف أسحبُ منهم جوازاتِ سفرهم، وأنا لا أراهم؟

قال: يقول خالُك: تسحبُ منهم جوازاتِهم إذا جاءتك عروسُك، وليس معها "ألبوم"، ولا أفلام، ولا "فيديو كليب"، وإذا عرَفْتَ أنَّ مهرَ العروس معاملتُها باللطف والأنس، وليس بالإكثار من الذَّهَب والخشَب، وإلا يا حبيبي، تصبحُ عروسُ يومِك مُطلّقةَ غَدِك!

ونهضَ البوسنيّ فتلقّفَهُ الناس: أنتَ ضيف عندنا اليوم!

فقال: يا جماعة، ألا يكفي هذا القِرى الذي يُطْعمُ أوروبا كلّها؟!

"باي.. باي" مناسف!

(٢٠)

لَوْعَة صَبّ وسنة ثانية حُبّ!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أمضى حَنْظَل سنتين في الجامعة، فجاءني يوماً بعدَ انتهاءِ الفصل الصَّيفيّ، وقد طوّقَ عُنقَهُ بسلسال، وأدارَ حولَ مِعْصَمِه رَبَّاطاً وراء ربّاط، ورسمَ بالشَّعْر على صَفْحَتي وجهِه ماركة "باتا" الإيطالية، وجعلَ على ذَقَنِه بقعة شَعْر، ولـوّحَ بميدالية بين أصابعه، فتعجّبتُ من فعلِه بنفسِه فقلت:

- ألم آخذْ عليك موثقاً من قبل ألاّ ترجع إلى "الوَلْدَنة"؟

قال: ما ترى جزءٌ من الموضة، وأنا جزءٌ من الجيـل الصّـاعد، ولـي نفـسٌ يغالبني هواها!

قلت: فعلاً أنت وأمثالك تدورون في حلقات مفرغـة مـن هـوى الـنفس، وجموحِ العاطفة، وتقلّدون من غير اقتناع، ولا تعرفون أنَّ هذه الموضة صـناعةٌ تقوم بها شركاتٌ تجارية عملاقة ابتغاءَ الأموال، وليستْ لسوادِ عين، أو جمـالِ بشرة، أو تحسينِ هيئة، ولا يهمّ تلك الشّركات ما يعصـفُ بزبائنهـا مـن فسـادٍ وضياع!

قال: أعَلى كلامِك هذا دليلٌ من الذّكر الحكيم؟ أم أنت تُنظِّرُ عليَّ خوفـاً على دنانيرك؟!

قلت: عنـدي دليـل دامـغ، فقـد أشـار المـولى العظـيم إلى هـذه الصـناعة الشهوانيّة فقال: "وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا".

فأهلُ الشهوات يريدون أنْ تكونوا فَجَرَةً مثلَهم، ومن أجل ذلك يَطْلُعـون عليكم كلّ يوم بألوان من التقليعات، وهمُّهم الأكبر أنْ يَمِيلوا بكم إلى هاويـة الانحراف والانحلال، ويضربوا عمودَكم الفِقْري، وهو دينكم، ويدمّروا جهـازَ مناعتِكم، وهو أخلاقكم!

قال: وعيدُ الحُبّ، ما سببُ معارضتك له؟

قلت: أيّ عيد، وأيّ حُبّ؟ حُـبّ الوالـدين، أمّ حُـبّ الأزواج، أم حُـبّ الوطن والأمّة؟ إنّه في شرع أهل الهوى تهنئـةٌ بالخلاعـة، وَوِصـالٌ بالفاحشـة، وهؤلاء الذين يحتفون بعيد الحُـبّ هـم الـذين يتركـون عيـدي الأمـة، الفِطْـر والأضحى، ويحوّلونهما إلى حزن ومـأتم وعـزاء، فتراهـم يـذهبون إلى القبـور يجـدّدون الأحـزان، ويـذرفون الـدُّموع، أمّـا في عيـدهم المزعـوم فيفرحـون ويمرحون!

عيدُ الحبّ يا حَنْظَل، مَفْسدة مُسْتحدثة، وهو عادة جاهلية قديمة، إذ كانت تُبْنى خيامٌ حمراء للزُّناة، فإذا رأوها تقاطروا عليها!

قال: أنا أحدّثُك من داخل قلبي، وأنت تشـنُّ علـيَّ وعلـى أحبـابي حملـةً عنيفة، أنا مُلْتاع، وأرعى النجوم، وليس لي وِرْد يوميّ إلا هذه الأُغنية:

يا ليلُ الصّبُّ متى غدُهُ أقيـامُ السَّاعةِ مَوْعِدُهُ

رقـدَ السُّمَّارُ فأَرَّقــهُ أسَفٌ للبيْـنِ يردِّدهُ

كَلِفٌ بغزالٍ ذِي هَيَفٍ خوفُ الواشينَ يشرّدُهُ!

قلت: يا مسكين! تردّد الأبيات، ولا تعرف أنّهـا للشـاعر علـي الحُصَـريّ القَيْرواني!

الحُبّ إحساسٌ مُرْهف وطُهر، ونقاءٌ وذوقٌ وعفّة، وجمـالٌ وحسـنُ هيئـة، وليس تضاريس مشوّهة على الوجه واليدين. ومـا هـذه الـتي تلـوّح بهـا بـين أصابعك؟

قال: هي ميداليتي أتسلّى بهـا، وعليهـا كمـا تـرى حرفـان بينهمـا سـهم، والحرفان هما: ح↔ن! أتدري ما معناهما، أيّها الأب الذكيّ الألمعيّ؟

قلت: حاء ونون: حصان ونعجة، أو حَمَل ونملة، أو حِمار ونَجِيل!

فصرخ مُتأفّفاً: لا، لا، بل هما: حَنْظَل – نهاوند!

قلت: رائع، تكتب اسْمَك واسمَ معركة "نهاوند" التي افتخر بهـا عُـروة بـن زيد الخيل:

ألا طرقَتْ رَحْلي وقد نامَ صُحْبتي بإيوانِ شيرينَ المزخرفِ خُلَّتي

ولو شهدَتْ يَوْمي جَلُولاءَ حربَنا ويومَ نَهَاوندَ المهولَ استَهلَّتِ!

قال: يسلم فهمك، نهاوند زميلتي في الجامعة!

قلت: تبّاً لك..!

وأمسكتُ بالعصا، فانحاشَ عنها، وولّى هارباً، وهززتُ رأسي: الله يستر، فما يزال حَنْظَل في السّنة الثانية من الحُبّ!

(٢١)

الهارب والحَبْل على الغارب!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

كان في القرية شابٌّ مُهذّبٌ شُجاع من تلامذة الشَّيخ "الدّباغ"، يعلّمُ الناس بالحجّة والإقناع، ويدعوهم بالحكمةِ الهادية إلى كُلّ نفيس، ويتخوَّلُهم بالموعظة عصرَ كُلِّ خميس، فكان لنا جُنّةً من الأوزار والأوضار، وجَنَّةً في راحة النفس، وهناءة القلب.

فما مضَتْ إلا أشهرٌ معلومات فإذا الشابّ قد فُتِنَ بمغرياتِ المدينة المجاورة، وحملَهُ بساطُ الهوى إلى حيث يَهْوى، فتكاسلَ وتراخى، وأضحى كمِصْباحٍ نَفِدَ زيتُه، وتضاءلَ نورُه، ثمَّ توارى الشّاب عن سماء القرية بعدَ أنْ كان قمرَها، وحِزامَ أمانِها!

وجاء أهلُ القرية يُهْرَعون إليَّ قالوا: إنّك لتعلمُ ما صارَ إليه أمرُ الشّاب، وغداً هو الجمعة، ولا خطيبَ يقوم فينا، فما ترى؟

قلت: فليخطُبْ مديرُ المدرسة، أو أحدُ مُعلّميها.

قالوا: المدير والمعلّمون في إجازة الصّيف، وليس أحدٌ منهم في القرية.

قلت: فليخطُب المختار.

قالوا: لقد علمتَ أنَّ المختار لا يقرأ ولا يكتب ولا يخطُب.

قلت: كأنّكم تريدون أنْ أرتقيَ المِنْبر وأخطُب، وأنا لم أكمل الصّف السّادس؟!

قالوا: ليس العلم بالشّهادة، وإنّما هو بالاجتهاد، ولـو كـان بالشّـهادة مـا لَمَعَ نجمُ الرّافعي والعقّاد، وهما لم يتمّا الصّف السّادس!

قلت: حشرتموني في الزّاوية الحَرِجة، فما لي بكم حيلـة، وأفـوّض أمـري إلى الله.

فلمّا كان الغَد، وأُذّن لصـلاة الجمعـة، صَـعِدتُ المِنْـبر، وجعلـتُ أسـاسَ خُطْبتي عن "الهاربين من ميادين الحياة"، وافتتحتُها بقول الله جلَّ ثنـاؤه: " فَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ".

وقلتُ: أيّها النّاس،

هذا أمرٌ من الله العليّ العظيم لنبيّه محمّد ﷺ، ولأمّته بالصـبر علـى الأذى والمشقة وتبليغ الرّسالة، ونهيٌ منه ﷻ عن الضَّجَر والعَجلة في الدّعوة، ومَثَـلٌ يعرضُه سبحانه وتعالى لكلّ داعية حتى لا يكون كصاحبِ الحُوت يـونس بـن متّى عليه السلام الذي غضـبَ علـى قومِـه، وركـبَ البحـر، وانسـحبَ مـن ميـدان الدّعوة، وهربَ يبغي النَّجاة منهم!

أيّها الناس،

إنَّ بعضَ الأزواج يهربون من البيت إذا عصفَت مُشكلة، أو أَلَـمَّ خَطْـب، فيولّون مُغاضبين، ويلجأون إلى أصحابهم، ويهربـون إلى البـرّ يلعبـون الـوَرَق والنَّرْد، ويأكلون المناسف!

وإنَّ بعضَ المـوظّفين يهربـون مـن مكـاتبهم إذا شـعروا بضـغطِ العمـل، وتراكمِ المعاملات، وكثرةِ المراجعين، ويولّـون مُغاضـبين، وبأيـديهم إجـازات مرضيّة، وما بهم من مَرَض، وإنّما هم مُتمارِضون!

وإنَّ بعضَ الخطباء والأئمة والمؤذّنين يهربون من دوامِهم ومساجدِهم، ويزعمون أنَّ الناس لا يستجيبون، وأنَّ الدِّين لا يمكن أنْ يقامَ في "مالطا"!

فيا أيّها الزَّوج الهارب،

عُدْ إلى بيتِك وزوجِك وأولادِك، وإذا خرجتَ والبيتُ يوشكُ أنْ ينهار، فمَنْ يصلحُه غيرك؟ عُدْ " فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ".

ويا أيّها الموظّف المتمارض الهارب،

عُدْ إلى وظيفتِك ومصنعِك بهمّة ونشاط، ومزّق الإجازة المرضيّة، ومزّق أطواقَ الكسل، عُدْ "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ".

ويا أيها الدَّاعية،

عُدْ إلى مسجدِك ومِنْبرِك ورسالتِك، وإذا هربتَ أنت، وهربتُ أنا، وهربَ فلان، وهرَبتْ فلانة، فمَنْ يبني البلد، وينهض بالأمّة؟ عُدْ، واجعلْ شعارَك: " فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ".

ولّما قُضيت صلاةُ الجمعة اجتمعَ أهلُ القرية، وتعاهدوا على أنْ لا يهرب أحدٌ منهم من ميدانِ عَمله، فقلتُ (مُعلّقاً مُبتهجاً):

- نِعْمَ العَهْد، ولو دُعيتُ إلى مثل هذا لأجبت!

(٢٢)

طَلاق في المُسْتَشْفى وفِراق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

وُلِدَتْ من رَحم الحياة في القرية فكرةٌ هادية تُرْسي دعائمَ السِّلم الأهليّ، وانبثقَتْ عنها هيئةُ إصلاحٍ مكوّنةٍ من المختار والحاج عوّاد ومنّي أنا العبد الفقير، ونَهَدَتْ الهيئةُ بأعمال الجاهات، وأَخْذ العطوات، وإصلاح المتخاصمين، وفضّ النِّزاعات بين الرُّعاة والفلاّحين، ووَصْلِ ما تقطّعَ من أرحامٍ بين الأقارب، ورَأْبِ ما تصدّعَ من علاقاتٍ بين الجيران!

وفي جُنْح ليلة جاءني المختار والحاجّ عواد فقالا: تجهّز.

قلت: خير، إن شاء الله، ما الأمر؟

قالا: بيت "ضِرْغَام" يريدُ أنْ ينقضّ، ونريدُ أنْ نقيمَهُ قبلَ أنْ يتداعى.. وَلَدَت امرأتُه الليلةَ بِنْتاً، فما أتمّت الطَّلْق، وبُشِّر بالأنثى الثالثة حتى ضاق ذرعاً، وزاد تأفّفاً وضَجراً، فأقامَ دُنيا المستشفى سَبّاً وشَتْماً ولَعْناً، ثمّ احتدَّ واشتدّ، فأرْغى وأَزْبَد، وحرّمَ وطلّق!

وانطلقنا إلى بيت ضِرْغَام، فاستقبلنا مُسْوَدَّ الوجه، كظيمَ النفس، فابتدرَهُ المختار:

- والله يا ضِرْغام لو الأمرُ بيدِك أو بأيدينا لاخترنا ما نريد، ولكنَّ الأمرَ بيد الله مالكِ الكون المتصرّفِ فيه، فلا رادَّ لقضائِه، ولا مُعقِّبَ لِحُكْمِه، وهو

الذي يُعْطي البنات، ويُعطي البنين، أو يجمعُ بينهما لِمَنْ يشاءُ من عبادِه، ويجعلُ بعضَ الأصلاب والأرحام عقيمة، فله الحكمة والعِلْم والقدرة.

قال الحاجّ عواد: يقول الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ **[الشورى:٤٩-٥٠]**

قال ضِرْغام: يا جماعة، أنا مؤمن بالله تعالى، ولكنني في حاجة إلى ابنٍ أشدُّ به أزْري، ويساعدني في حَقْلي، وأفتخرُ به في مجالسي!

قلت: في دين الله يا ضِرْغام، لا فرقَ بين الذّكر والأنثى، فليست الأنثى وصمةَ عار، ولا نذيرَ شُؤم، وليس الذّكر بطولةً ورجولة، ونخوةً وعِزْوَة، وإنّما هما معاً قرّةُ عين، وبهجةُ عُمر.

ولعلّ هذه البنت تنجبُ بطلاً كصلاح الدِّين يخلّصُ هذه الأمة من براثنِ أعدائها المجرمين، وتكونُ أنتَ جدَّ هذا البطل، وتقولُ بملء فيك: هذا حَفيدي، فَلْيُرني كلُّ امرئٍ حفيدَهُ!

وهذه النظرةُ الدنيئة للبنت نظرةٌ جاهليّة، فقد كانت البنت مُتاعاً يُهانُ ولا يُصان، وكانت بُشْرى سَوْء يَسودُّ لها الوجه، وكانتْ تدفنُ حيّةً خوفَ الفقر والعار، حتى قيل: "دفنُ البنات من المكرمات"، ولم يكن لها أيّ حقّ، لا في الميراث، ولا في التملّك، ولا في أيّ شيء!

قال المختار: والأنثى هي البنت والأخت والزَّوجة والأمّ، ولولاها ما كان الأنبياء، والعلماء، وما كان الرّجال، وما كنتَ أنت، وما كنّا نحن!

قلت: والعجب أنَّ العلمَ الحديث أثبتَ أنّ الرَّجل هو المسؤول عن تحديد جِنْس المولود، وليست المرأة، وقد أشارت امرأةُ "أبي حمزة الضبّي" إلى هـذا مـن قبلُ، فقالت أبياتاً في زوجها الذي هجرَهـا عنـدما ولَـدَتْ لـه بنتـاً، فـرَقَّ لهـا وصالحَها، قالت:

ما لأبي حمـزةَ لا يأتينا يظلُّ في البيتِ الذي يَلِينا

غضبانَ ألا نلـدَ البَنينا تاللهِ ما ذلـكَ في أيدينـا

وإنّما نأخـذُ ما أُعْطينا ونحنُ كالأرضِ لزارِعينا!

نُنْبِتُ ما قد زرعوهُ فينا!

قال الحاجّ عواد: والبناتُ حِجابٌ من النـار لوالـدهنّ الكافـل لهـنّ، فقـد ضمنَ رسولُ الله ﷺ الجنّة لأبي البنات البارّ بهنّ، المنفـق علـيهنّ، فقـال: "مَـنْ كان له ثلاثُ بنات يُؤويهنّ، ويرحمهنّ، فقد وجبَتْ له الجنة البتةَ، فقـال رجـلٌ من بعض القوم: واثنتين يا رسولَ الله؟ قال: واثنتين".

وبيّن رسولُ الله ﷺ أنَّ من أعظم الصّدقة، وأقـرب القربـة إنفـاقَ الوالـدِ المُعْسر على ابنته المردودة إليه بسبب خلاف أو طلاق فقال لِسُراقةَ بن جُعْـشم: "ألا أدلّك على أعظمِ الصّدقة، أو من أعظم الصّدقة؟ قال: بلى يا رسـولَ الله. قال: ابنتُك مردودةً إليك ليس لها كاسِبٌ غيرُك".

قال المختار: والبنات هِبةٌ من الله الوهّاب، وبركة وثـواب، وقـد سمعـتُ من المِذْياع أنّ أحدَ الصَّالحين قال: البناتُ حسَنات، والبنون نِعَـم، والحسـناتُ ثواب، والنِّعمُ حِساب!

فتأثّرَ ضِرْغام بما سمع، واستهوتْهُ أمنيةُ صلاح الدِّين، فأعلن ندمَهُ على ما بدرَ منه، وأعلنَ أنّه سيذهبُ الليلة إلى زوجته؛ ليراجعَها ويصالحَها، وسيأخذ لها كَبِدَ خروف!

(٢٣)

خَنْقُ الأحلام والجِنَاية على الأيام!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

خرجتُ بُعيدَ قرآن الفجر أرشُّ الشّجر؛ لأحفظَ الثَّمر من العَطَب والعَفَن، وما يعتريه من المَنّ والصُّفرة، والبياضِ الدّقيقيّ والكُدْرة، وابتدأتُ أملأُ المِرَشَّة وأرشّ، حتى أحسَّ ظهري بلذعةِ الشّمس، ولقَطَتْ أذني بعضَ الأصوات والحِسّ، فتطاولتُ أنظر وأتسمّع، فإذا أولادٌ يلعبون بِكُرةٍ من الخِرَق البالية، فناديتُ:

- يا أولاد، ما يُؤخّركم اليومَ عن دوامِ المدرسة؟ أم أنتم مُتَسَرِّبون، تلعبون وتتسكَّعون، وأولياءُ أمورِكم لا يعلمون؟

قالوا: اليوم عطلة يا عمّ، ونحن شُطّار، ولا نستحقُّ ما وصفتَنا به!

قلت: اليوم عطلة؟ ما اليوم، ومَنْ عَطَّلكم؟ أماتَ أحد، أو حدَثَ أمرٌ جَلَل؟

قالوا: اليوم الخميس، وهو عطلة أسبوعيّة في البلد رغمَ أنفِك يا عمّ، وأنف مِرَشَّتِك!

وفي البلد إشاعة: أنّ العطلة ستكونُ ثلاثة أيام: خميس وجمعة وسبت، أو يكونُ سبتُ اليهودِ محلَّ الخميس.

فتبسّمتُ ضاحكاً من قولهم وقلت: حديثُكم ممتعٌ فتعالَوا.

فجاء الأولادُ الأربعة، فأوقدوا النار، وعملوا الشّاي، وجلسوا مُتقـاربين، ينكتُ كلٌّ منهم بعودٍ في يده، وتوقّفتُ عن الرَّش أحاورُهم فقلتُ:

- أتحبّون عطلةَ الخميس والجمعة؟

قالوا: نحبّها ولا نحبّها! نحبّها؛ لأننا نلعبُ فيهـا، ولا نحبّهـا؛ لأنّ الـدّروس تضيع منّا، ولا نستفيد!

وأنت يا عمّ، أتُعطّل الخميس والجمعة؟

قلت: أنا أعملُ من الصّباح إلى المساء، ولا أتوقّفُ عن العمل إلا لصـلاةٍ، أو راحـةٍ، أو طعـام، وإذا عطّلـتُ أنـا وعطّـل المزارعـون، وأربـاب الحِـرَف، والموظّفون، والعمّال، والأساتذة، والأطباء، وعطّـل البلـدُ كلّـه، فمَـنْ يـزرع، ويصنع، ويتَّجِر، ويُعلّم، ويداوي، ويخدُمُ الناس؟

وأمتُنا اليوم، وهي تعرجُ وراءَ الأمم أحوجُ إلى العَمَل من العُطَل، أحـوجُ إلى كلّ دقيقة، وإلى كلّ ساعة؛ لأنّ الأمـم تتسـابقُ اليـومَ علـى زعامـة العـالم، وترفيه أبنائها وإسعادهم.

وفي كثـرة العُطَـل خَنْـقٌ لأحـلام الأجيـال الطامحـة إلى المسـتقبل الزّاهـر، والتحرّر من الجهل والمرض والتخلّف، وفي كثرةِ العُطَل جِنايةٌ على الأيام التي جعلَها الله تعالى للكَسْب والمعاش، ولم يجعَلْهـا للكَسَـل والفِـراش، بـل جعـلَ الليلَ للراحة والنوم والعُطْلة. ألا يكفي الليلُ عُطلةً يوميّة لنا؟

قالوا: عطلة اليومين فَرْض كفاية أم فَرْض عين؟

قلت: ليس في الشَّرع الحنيف إشارةٌ إلى تَرْك العَمَل، بل إنّ القرآنَ الكريم يدعو المؤمنين إلى استئنافِ العَمَل بعدَ صلاة الجمعة: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ".

ويبدو أنّ عطلةَ اليومين فَرْضُ عين، أي عين حمراء من عيون "الخواجا"، ولأجلِ عينٍ، ألفُ عين تُعطّل، وألفُ عين تنام، وألفُ عين تتسوّق، وألفُ عين تسرح وتمرح!

قالوا: يا عمّ، أتعرفُ لماذا نعطّلُ يومين كُلَّ أسبوع؟

قلت: أعرف، لقد اتّفقَ العربُ على عطلة اليومين، وهم يضمرون في أنفسِهم تعطيلَ الأيام كلّها، عطفاً عليها، وخوفاً من أنْ تغارَ من بعضها، وهم يطبّقون بالتدريج أغنية "نصري شمس الدين": "يوم ويومين وجمعة وشهر وشهرين"!

ثمّ إنّ العربَ في حاجة ماسّة إلى الرَّاحة بعد مائة عام من الإنجازات الكبرى:

راحة واسترخاء لروّاد الفضاء بعدما حرثوا الكواكبَ صُعوداً ونزولاً دون وقوف، وجاوزوا الزّهرة والملفوف!

راحة واسترخاء للمسؤولين الذين أتعبوا أجسادَهم في تفقّد أحياء المدن والقرى مشياً على الأقدام كما كان يفعلُ عمرُ الفاروق لا عمر الخيّام!

راحة واسترخاء لأهل الزّراعة والصّناعة الذين غرّقوا السُّوق الأوروبيّة المشتركة بملايين السِّلع والأجهزة المتطوّرة، حتى عافَ البشر الموزَ المقشّر واللوزَ المعطّر!

قالوا: يا عمّ، ما نفهمُ ما تقول!

قلت: ثمّةَ مَنْ يفهمُهُ، فاشربوا شاياكم، وستذكرون ما أقولُ لكم!

(٢٤)

شمبانزي يَخْتال على غَزال!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

اقتضى العملُ في الحَقْل أنْ أتردّدَ على المدينة المجاورة للقرية؛ لأشتريَ لوازمَ الزِّراعة، وأتاحَ لي هذا التَّرداد أنْ أُخالطَ ألواناً من الناس، وأعرفَ الغَثَّ من السَّمين، والتَّنَك من الماس!

وكان يجالسُنا في دكّان الزّراعة شابٌّ طويلُ القامة، عريضُ المنكبين، كبيرُ الهامة، وكان الشّاب مُصاباً بآفة الاستعراض، فما إنْ يقعد على كُرسيّ القشّ حتى يتدفّق كالسّيل مُتحدّثاً عن نفسِه وأهلِه وأولادِه، فلا يدعُ أحداً يتكلّم، وإذا تكلّمَ أحدٌ بجملة قاطعَهُ حتى يستوليَ على الحديثِ كُلِّه!

وفي كلِّ جَلْسةٍ يصوّرُ نفسَهُ بطلاً لكلِّ قصّة، يتصاغرُ مع بطولتِه الزِّير سالم، وعَنْترة، وأبو زيد الهلاليّ، و"رومل"، و"مونتجمري"!

فتارة يتحدّثُ عن عملِه، فيجعلُ من نفسِه النَّجمَ اللامع بين زملائِه، رأيُهُ سَديد، وآراؤهم سخيفة، ولباسُهُ أنيق، وألبستُهم مُبْتذلة، وصحنُهُ واسعٌ كصحنِ حاتم، وهم بخلاء كبخلاء الجاحظ، وحرّاسُ مال، و"كَحاتيت" كِبار!

وتارة يتحدّثُ عن مقابلاتِه للمسؤولين، فيجعل من نفسِه صاحبَ الشَّخصية المتنفّذة، يُوبِّخ الموظّف المقصّر، ويبهدل رئيس القسم، ويمسح الأرض بالمدير، ولا أحدَ من هؤلاء يَنْبِسُ ببنتِ شَفَة، بل يرجونه أنْ يشربَ القهوة فيأبى، ويخرجُ بلا سلام ولا كلام!

وتارة يتحدّثُ عن معارفِه وأصحابِه، فيجعل من نفسِه قُطبَ الرّحى، ومركزَ الدائرة، ويعلنُ أنّه يلتقي بعِلْيَةِ القوم ووجهاءِ البلد، ويعرفُ الوزيرَ الفلاني، والعالِمَ العلّاني، وأنّهم رهنُ إشارتِه، بل إنَّ بعضَهم يتقرّب إليه، ويتمنى أنْ يحظى بكلمةٍ منه!

وكان الشّاب لا ينصرفُ حتى ننصرف، ولا يهدأُ لسانُهُ، فكأنّه البَنْدُول، حتى إذا انصرفَ يوماً قَبْلَنا، قال لي صاحبُ الدّكان:

– ما أعجبَ هذا الشَّاب يتكلّمُ كأنّه إذاعة تَبثّ أربعاً وعشرين ساعة، ويدَّعي الإحاطة بمعرفة كُلّ شيء في الدِّين والسّياسة، والاقتصاد والرِّياضة، والاجتماع والتّربية، والأدب والرّواية، والعِلْم والتقنية، ويُفتي في كُلّ مسألة، وهو في كلّ ذلك البطل الذي لا يُشقّ له غُبار، والصّارم البتّار الذي يَفْلُقُ هامَ المختار!

وهذا الشّاب يلازمُني منذ سنة، كأنّه لَزْقة "جونسون" على صَدْري، وليتَهُ وحدَهُ، بل أعرفُ كثيرين مثلَهُ، يختالون كما يختال الشّمبانزي على الغَزال، ويستعرضون كما تستعرض الطواويس على قطيع نعاج، ويدّعون أنّهم شمُوس، والناسُ من حولهم فوانيس!

وفي الناس – الذين يختالُ عليهم الشّمبانزي – ظِباء مصونة بالخفَرِ والحياء، والدَّل والهَيَف، وفيهم غِزْلان حُرّة في براريها، لو أُعطيت الدّنيا وما فيها ما تنازلتْ عن كرامتِها طرفةَ عين!

قلت: أبلغُ ما يَرُدُّ على هؤلاء المستعرضين قولُ الله العظيم في كتابه الحكيم: "فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى".

فالله المتكبّر المتعال ينهى بني آدم عن مَدْحِ النفس على سبيل الإعجاب والثناء، أو الشّهادة لها بالكمال والتُّقى، أو نَسبها إلى الطّهارة والنّقاء؛ لأنَّ النفسَ إذا مُدِحَتْ اغترّتْ وتكبّرتْ، واللهُ وحدَهُ أعلمُ بمن أخلصَ العمل، واتّقى في السِّر والعَلَن.

قال: الخطرُ في الاستعراض أنّه يشتملُ على جملةِ أخلاق رديئة، فهو يقومُ على الكذب والتزوير، والمبالغة والتهويل، والمستعرض بين أنانيّتين: أنانيّة "أنا وأنا" ما دام على رأسِ عمله، وأنانيّة "كنتُ وكنتُ" إذا تقاعدَ من عملِه!

قلت: والخطرُ على أصحابِ الاستعراض أنّ النَّاس سيكشفونهم، وسيعرفونهم في لَحْن القول، مهما حاولوا التخفّي والتّمثيل:

ومهما تكنْ عن امرئ من خَليقةٍ   وإنْ خالَها تَخْفى على الناسِ تُعْلَمِ!

وهم في خطر دائم؛ لأنَّ النبيّ ﷺ يقول: "المتشبّعُ بما ليس فيه كلابسِ ثَوْبَيْ زُور"!

فيا لضيق الناس ونَكَدهم إذا كَثُرَ فيهم أمثالُ هذا الشّمبانزي المختال، ويومَ يصيرون مائة في كُلّ قرية، وألفاً في كُلّ مدينة، وتضيقُ بهم الحديقة، فأَقِمْ عليهم مأتماً وعويلاً!

(٢٥)

أُريدُها حَمامَةً ويريدُها غَمامة!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

كان رجلٌ في القرية يتردّدُ على السُّوق، فلا يدعُ دكّاناً، ولا مَلْحَمة، ولا محلَّ فاكهة إلا وقفَ عنده، وراقبَ البائعَ والشَّاري، وعرفَ الدَّاخلَ والخارج، حتى عرفه الناسُ من الدَّاخل والخارج، وعرفوا أنَّ كنيتَهُ "أبو عَذاب"!

أبو عَذاب شابٌ في الأربعين، قَوَّامٌ على عائلة من أربعة أنفار، له بيتٌ حسَن، ومحلٌّ مُؤجّر، وكَرْمُ عنبٍ وزيتون، وقطعُ أراضٍ، وعلى الرّغم من ذلك فهو مصابٌ بآفة التذمّر والشّكوى، تلك الغَمامة القاتمة التي تلوّنُ كلَّ شيء بالسّواد، تلوّن الوجهَ، فتجعلُه كالحاً، وتلوّنُ الكلامَ، فتجعلُه شاحباً، وتلوّنُ كلَّ جميلٍ خلقَهُ الله فتجعلُه قبيحاً غايةَ القُبْح!

يدخل أبو عذاب السّوقَ كُلَّ يوم، فلا يدعُ قريباً أو غريباً إلا شكا له حالَهُ، وتذمّرَ عنده من ضيق عيشِه، وقلّةِ ذاتِ يده، وأعلنَ أنّه لا يملكُ شيئاً، وأنّه يعيشُ بالدَّيْن، وأنْ ليس له رصيدٌ مثل فلان وفلان الذين وُلدوا وفي أفواههم ملاعقُ ذَهَب، والذين أكلوا ما في البلد!

ثمَّ بعدَ حين تبيّنَ للناس أنّه ليس وحدَهُ المصابُ بهذه الآفة، بل إنَّ عائلتَهُ كُلَّها تعاني من هذا المرض المُعْدي: فزوجتُه أمّ عذاب تشكو لقريباتها وجاراتها في جلساتها وزياراتها، وابنُهُ "عذاب" يشكو لأصحابه عند اللقاء بهم، وأختُ "عذاب" تشكو لصاحباتها في السَّاحة والاستراحة!

ولّما اطّلعتُ على حـال أبـي عـذاب دعـوتُ هيئـة الإصـلاح للاجتمـاع، وانطلقنا إلى بيته، فقال المختار:

– ما شاءَ الله، يا سالم، عندك الدُّنيا كلّها، القاعدُ منها والقائم، وعندك مـا يحقّقُ الأماني العِذاب، ولذلك أقـترحُ أن تغيّـرَ اسـمَ ابنـك "عـذاب"، وتسـمّي نفسَك أبا شاكر!

قال (وقد فَهِمَ ما يرمي إليه المختار): الحمدُ لله مستورة يا سيدي، ولو أنَّ الدنيا تُقْبلُ على ناس، وتعرضُ عن ناس، أنـا عمـري خمـس وأربعـون سـنة، وليس لي إلا بيتٌ واحـد، وأولادي لا يـأكلون اللحـم إلا مـرّة في الأسـبوع، لكنْ أبو السَّمن..

فقاطعه الحاج عوّاد: يا سالم، دعنا من الناس، ولنستمعْ لكلامِ ربّ الناس الذي يقولُ عن الناس: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الـدُّنْيَا وَالْـآخِرَةَ ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ".

يعني من الناس فئةٌ تعبدُ الله بقلق واضطراب لا عن ثقة ويقـين، فحـالُهم كالذي يكونُ على طرف الجيش، فإنَّ أحـسَّ بظفـر أو غنيمـة اسـتقرَّ وشـكَر، وإلا سَخِطَ وفرّ!

وقد رُويَ أنّ الرَّجُلَ كان يقدمُ المدينة علـى عهـد الـنبيّ ﷺ، فـإنْ وَلَـدت امرأتُه غلاماً، وأنتجَتْ خيلُه قال: هذا دينٌ صالح، وإذا لم تلد امرأتُه، ولم تُنتجْ خيلُه قال: هذا دين سَوْء!

والمسلم الحقّ ليس من تلك الفئة، وإنّما هو الذي يعظّمُ نعمـةَ الله عليـه، ولو كانتْ قليلة، وإذا أصابه همّ أو مرضٌ أو فقرٌ صبرَ واحتسب، وإذا أصـابه خيرٌ أو صحةٌ شكرَ، وحدّثَ بنعمةِ ربّه.

قلت: والعجب أنَّ بعضَ الناس يشـكون الخـالق للمخلـوق، فـإذا قَلَّـتْ أرباحُ مشاريعهم، أو نقَصتْ رواتبُهم ديناراً واحداً سَخِطوا!

ولو أنّ إنساناً جعلَ يشكو المسؤول الكبير في البلد في كـل مكـان؛ لأُخِـذَ وحُوسِبَ حساباً عسيراً! فما البال بهؤلاء؟ وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه!

قال أبو عـذاب: واللهِ كلامُـك صـحيح، نحـن نعـومُ في بحـرٍ مـن الـنِّعم، وألسنتنا تطلقُ قذائفَ التذمّر والتبرّم على الخالق الرَّازق، يا ويلنا، ما أجحدَنا!

قلت: أحسنتَ، ولأجل هذا جئنا نـذكّرُ أخانـا أبـا شـاكر، بـأنّ الشَّـكوى تسيءُ إلى سمعة الإنسان، وأنَّ الدِّين لا يوزنُ بميزان الربح والخسـارة، ولـيس صفقةً في سُـوق التجـارة، فـلا نفـرح إذا أقبلـت علينـا الـدنيا، ولا نحـزن إذا أعرضَتْ عنّا، بل نفرحُ بزيادة الطاعة، ونحزنُ إذا قصّرنا في جنب الله! وعلينـا أنْ نرى الحياةَ حمامةً بيضاءَ تنشرُ جناحيهـا فينتشـر الجمـال، لا غمامـةً سـوداء تمطرُ حجارةً من سِجيل، يا أخي، يا سالم، كنْ جميلاً ترَ الوجودَ جميلا!

قال المختار: والخلاصة يا سالم، يا أبا شاكر؟

قال سالم: الخلاصة أنّي قرّرتُ إكراماً لهذه الهيئـة الجليلـة أن أتخلّـصَ مـن عادة التذمر والشَّكوى، وأكثرْ من قولِ "الحمد لله"، وأسمّـي ابـني شـاكراً، وإذا أردتُم شاكراً حامداً سالماً غانماً!

فضحكنا وخرجنا، ونحن نربـتُ علـى كَتـفِ سـالم، أو قُـلْ: نثبّـتُ حمامـةَ الرّضا في قَفَصِه الصَّدريّ!

(٢٦)

ذوَّاق والبلد مُشتاق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

كان من حُسْن حظّي أنّي رُزِقتُ بجارٍ صالح، له ولدٌ طَمُوح، جَدَّ في العِلْم واجتهد حتى حازَ الشّهادة العليا، ثمّ عُيّن في جامعة المدينـة، فلقيتُـه في سُـوق القرية يومَ جلبتُ الخَضْروات، وقلت:

- يا بنَ أخي، أما زلتَ تحاضرُ في الجامعة؟

قال: إي يا عَمّ، أحاضرُ في الطلبة والطالبات، وأدرّسُ المساقات، وأكتـبُ البحوث والمقالات، وأتواصل مع أقراني في القارات.

قلت: وفّقك الله، وسدّدَ قلمَك، وقوّمَ لسانَك، وجدّدَ ربطةَ عُنقِك!

قال: ما سمعتُ بهذا الدُّعاء من قبلُ: "جدّدَ ربطةَ عُنقك"! فما تعني؟

قلت: ألستَ بهذه الرّبطة تُرْزق، وتُقدّر وتُعـانق؟ أليسـت علامـةً تجاريـة مُسجّلة لأساتذة الجامعة؟

قال: بلى، ولكنني لا أوافق على قولِك: "علامة تجاريّة مُسجّلة".

قلت: لستُ أعنيك، إنّما أعني الذي يتكسّبون بشهاداتهم، ويتحوّلون مـن محاضرين إلى مُقاولين، وإنْ كنتُ أخطأتُ في حقّك فاجعلني في حِلّ.

قال: أنت في حِلّ، ولولا ذوقُك لأخذتني عزّةُ الجامعة بإثم القرية، ولكـنَّ الله سلّم!

قلت: الحمدُ لله الذي يسلّم بالذّوق الرَّفيع من التشاجر الفظيع.

قال: الذّوق يا عَمّ، حسٌّ مُرْهف، ولُطفٌ رقيق، وأدبٌ جَمّ إذا داخلَ النفس جعلها شفيفةَ الشّعور، مهذّبةَ الحركة، مترفّعةً عن الدّنايا والصَّغائر، أمّا إذا خلَتْ منه النفس فإنَّ حِسَّها يتبلّد، وطبعَها يجفو، وصُورتَها تَقْبُح، وحياؤها يَقلّ، وإذا قلَّ الحياء يا عمّ..

قلت: فعلى الدّنيا السّلام، وويلٌ يومئذٍ للجَمال، ولَنْ يفلح قومٌ أُنتُزِعَ منهم الذّوق الرَّفيع، وانظرْ إنْ شئتَ إلى الشَّوارع في مُدن العرَب، ما أضيقَها، وما أقذرَها، وما أقبحَها!

وانظرْ إنْ شئتَ إلى مُدن الغرب ما أجملَها، وما أحسنَ تخطيطَها، وما أبدعَ زينتَها!

قال: ذلك لأنَّ الذوق عندهم تربية وثقافة وأسلوب حياة، وهو في ديننا خُلقٌ حميد، ومَسْلك كريم، وآية وَرَع وتُقى، فالمؤمن الذوّاق هو السَّمح إذا باع أو اشترى، أو عَمِلَ أو سَعى، أو حاورَ أو دعا.

ولقد كان رسولُ الله ﷺ المثلَ الأعلى للخليقة في الذّوق الرّفيع: في كلامِه وحوارِه، ومعاملتِه وعبادتِه، وطعامِه ومنامِه، وثيابِه وهيئتِه، فكان أنْ نهلَ أصحابُه من مَعِيْنه الذوقيّ الذي لا ينضب، ومن ذلك أنّه قيل للعباس عمّ النبيّ ﷺ: أأنتَ أكبرُ أم رسولُ الله؟ قال: رسولُ الله أكبرُ منّي، وأنا ولدتُ قبله!

قلت: ما أحوجَنا إلى الذّوق الرَّفيع الذي يحمي مُنجزاتِ البلد من الأيدي العابثة بلافتاتِه ولوحاتِه، ومقاعدِ مظلاّتِه وحافلاتِه، ومن المِقَصّات الجائرة

على أزهار حدائقِه، ومن الرّصاصات القانصة لأطيارِ طبيعتِه، ومن الأقلام المُخَرْبشة على أوراق عُمْلتِه!

قال: أنا لا أعدّ المواطن مُنْتمياً لوطنه إلا إذا كان ذوّاقاً، ولو تبوّأ أعلى المناصب، وحازَ أرفعَ الأوسمة؛ لأنَّ الذوق يمنعُ صاحبَهُ من إفساد البنية التحتيّة، أو العَبَث بالمرافق العامة.

يا عمّ،

مَنْ يَسِرْ في وسط الشّارع، أو يبصقْ فيه، أو يبعْ على الرَّصيف، فهو فاسدُ الذّوق.

ومَنْ يزعج الناس بالموسيقى في الحفلات والحافلات، والمنازل والطّرقات، فهو فاسدُ الذّوق.

ومَنْ يتخطَّ "الدَّور" عندَ الأفران، ومواقف السّيارات، ومكاتب المعاملات، فهو فاسدُ الذّوق.

ومَنْ يأكل المَنْسَف بشراهة حتى يسيلَ المَرَقُ على ثيابه، فيشوّه صورةَ البلد في عيون زائريه، فهو فاسدُ الذّوق.

قلت: الخلاصة يا بنَ أخي، أنَّ البلدَ لا يحتاجُ إلى فاسد الذّوق، بل هو مُشتاق إلى المواطن المتحضّر الذّوّاق!

(٢٧)

كانَتْ لِلْهِداية فصارَتْ لِلْهَدايا!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

احتفى أهلُ القرية بِمَقْدَم الحاجّ عواد من الحجاز، فعلّقوا على الطُّرقات والجدران باقاتٍ من الأقحوان وشقائقِ النُّعْمَان، وازدحمَ المهنّئون ببابه، ويداه لا تكلاّن عن توزيع ماء زمزم والسُّوُك والمسابح، والناسُ ينظرون إليه كأنّه مَلَكٌ هابطٌ من السّماء، حتّى هَمَّ بعضُهم بأنْ يتمسّحَ بثيابه البيضاء طلباً للبركة، واستمطاراً لِمَا عَلِقَ بها من عِطْر الكعبة، وأنفاسِ الصَّحابة، وكأنّما سُطِّرتْ ذكرياتُ الإسلام الأولى على ثيابه، فهو تاريخٌ حيٌّ مُعطّر، ولكنْ على هيئة رَجُل!

وكنتُ مِمَّنْ لَقِيَهُ في الطريق قبلَ وصوله، فحادثتُه وحادثني، وقلتُ له:

- هنيئاً لك يا حاجّ عواد بأداء هذا الرّكن، والقيام بهذا الفَرْض.

قال: هنيئاً لِمَنْ حَجّ، وما كلُّ مَنْ ذهبَ إلى تلك الدّيار حَجّ!

قلت: يا عجباً! انظرْ كيف قلت.

قال: الحاجّ يا بنَ الفلاح، مَنْ تمثَّلَ: "فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ"، ومَنْ أحرمَ ولبّى، وطافَ وسَعى، ووقفَ بعرفة، وباتَ بِمِنى، وأمسكَ لسانَهُ، وأدّى مناسِكَهُ!

قلت: كأنك تومئ إلى أنَّ في الحُجّاج مَنْ لا يأتي بالحجّ على الوجه المطلوب المرغوب.

قال: هو ذاك، فإنّي رأيتُ ناساً قَلَّ صبرُهم وتحمّلُهم، وكَثُرَ تأفّفُهم وتبرّمُهم، وزادَ تزاحُمُهم على هِبَاتِ السَّبيل من الأطعمة والأشربة، وكأنّهم لم يأكلوا شيئاً منذُ سنة!

قلت: ألا يذكرُ هؤلاء أنّهم يلبسون الكَفَن، وأنّهم في رحلةٍ تدريبيّة من العاجلة إلى الآخرة؟

ألا يذكرُ هؤلاء أنَّ الحجَّ يعلّمُ التعفّفَ والزّهد، ويحفّزُ على الطّاعة، ويوطّنُ النفسَ على المشقة؟

قال: أنّى لهؤلاء المتهافتين على سَقْط المتاع أنْ يتعلّموا إنْ لم يتعلّموا في بيوتهم وبلدانهم، بَلْ ليتَهم يمسكون ألسنتَهم عن الشّتم والبذاء على عرفات الله، ويمسكون أيديهم عن دَفْع الناس في الطّواف، ويمسكون أرجلَهم عن كثرة الخُطى إلى الأسواق، والتلهّي بالهدايا، حتى جعلوا هذه البلادَ الطاهرةَ مَرْكَزَ الهداية جعلوها مَرْكَزَ تسوّقٍ وسياحةٍ وهدايا!

وإنّك لتدهشُ وأنتَ ترى مئات الشّاحنات التي تحملُ مئاتِ الأطنان من الهدايا، وهي تخبُّ الصّحراء، لا تكادُ تقوى على السّير من ضخامة ما حُمِّلَ فيها!

قلت: حقّاً، ما كُلُّ مَنْ ذهبَ إلى تلك الدّيار حَجّ!

قال: ألم أقل لكَ ذلك، وما كُلُّ مَنْ أمسكَ بالقلم كاتبٌ مجيد، وما كُلُّ مَنْ هَزَّ السّيف فارسٌ صِنديد، وما كُلُّ مَنْ جلسَ وراءَ الميكروفون مذيعٌ قدير، على أنَّ القرد في عين أمّه غَزال!

قلت: الحقّ أنَّ هذه الأمثال لا تصحّ إلا على أشباه الرّجال، أمّا أهلُ العزم فتأتي على أقدارِهم العزائم، وإنَّ من العزم أخذَ الحجّ بقوة، من غير ما تراخٍ أو تشاغلٍ عن مناسكِه وشعائرِه.

قال: الحجّ المبرور يا أخي، ليس له جزاء إلا الجنّة، أثمّة مجالٌ للتراخي أو التشاغل لدى العقلاء بعد هذه الجائزة الكبرى؟ وإنّه لنعمة، وما يلقّاها إلا ذو حظّ عظيم!

قلت: وأنتَ يا حاجّ عواد، هل حفظتَ الرأسَ وما وعى، والبطنَ وما حوى، وذكرتَ الموتَ والبِلَى، وحَجَجْتَ حجّةَ العُمر الفضلى؟

قال: إي والله، وأسأله تعالى أنْ يجعلَ حجّي مبروراً، وسَعْيي مشكوراً، وذَنْبي مغفوراً.

قلت: آمين، ولا تنسَ أخاك من ماء زمزم؛ فإنها طعامُ طُعْم، وشِفاء سُقم.

ومَدَّ يده فأعطاني قِنينةَ زمزم فشربتُها، وأنا أتمتم:

رَبِّ إنّي أسكنتُ قلبي ومشاعري عندَ بيتِك المحرّم،

رَبِّ فاجْعَلْ جسدي يلحقْ بقلبي ومشاعري،

واهدِ عبادَك إلى الإفادة من مؤتمر الحجّ الأكبر،

وعلِّمْهُم كما علّمتَ آدم، وفَهِّمْهُم كما فهّمتَ سُليمان،

وأنْعِمْ عليهم بالخُلُق العظيم كما أنعمتَ على نبيّك محمّدٍ السّراج المنير،

إنّك أنتَ العليمُ الحكيم!

(٢٨)

عِقاب جماعيّ بقانون سَماعيّ!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

تعطَّرَتْ سماءُ داري أَرَجاً، وأنبتَتْ أرضُها وَرْداً، وتمايلَ حَقْلُها طَرَباً، يومَ حَلَّ بها "شهاب الدِّين" ضيفاً، فكأني إذ أحتفي به، أحتفي بـ"جَاوا" الغربيّة، وبإندونيسيا كُلّها، فبلدُهُ شِرْيان تاجيّ في قلب الأمّة، أكثرُ عدداً، وأرقُّ طِباعاً، وأرقى ذوقاً!

فلا عجبَ أنْ ينْزلَ من قلبي في السُّويداء، وأن أغمرَهُ بالكرَم والحفاوة، وأتجوّلَ به في القرية، جامعِها ومدرستِها وحقولِها وآثارِها وأوديتِها وجبالِها وعيونِ مائها، وهو يعجب، ويردّدُ لازمتَهُ اللفظية بِلَكْنَتِه المحبّبة: ما شاءَ الله!

وبينا نحن على تلّة إزاءَ الوادي؛ إذ وردَ علينا خبرٌ مُفزع مُزعج: "قتلَ شابٌ صاحبَهُ ببندقيتِه"! فرجعتُ بشهاب الدِّين على عَجَل قبلَ أنْ تُحاصَرَ القريةُ، وقبلَ فورة الدّم ورصاصِها الطائش الذي لا يفرّقُ بين أحد، ولا يستثني ضيفاً، ولو كان شهاب الدّين الإندونيسيّ!

ثمّ تواردت الأنباءُ مُفَصّلةً عن الحادث، فسألني شهابُ الدِّين، وقد أحسَّ بحزني:

- ما الأمر؟

قلت: أمرُ خيرٍ فاطمئن، صاحبٌ قتلَ صاحبَهُ خطأً، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال: وأين إجراءات السَّلامة العامة؟ أخبرني: كيف حصلَ الحادث؟

قلت: اعتادَتْ جماعةٌ من الشبّان أنْ يخرجوا فجرَ كُلٍّ جمعة إلى وادٍ فيه ماءٌ وطيور، ويصطحبوا معهم بنادقَهم وزادَهم، فإذا وردَ الحَمَامُ الماءَ كَمَنُوا له، وأطلقوا عليه الرَّصاص، وعادوا بصيدٍ ثمين، ولحمِ طيرٍ مما يشتهون!

ولكنّ أحدَهم هذه المرة أخطأ التَّصويب، وكان صاحبُه على مقربة من الماء، فانطلقَت الرَّصاصة، فأصابتْه في عُنقِه فنَزف، ولم يستطيعوا إسعافَهُ لوعورة الوادي، ثمّ توفّي.

قال: فما يحصل للقاتل في مثل هذه الحالة؟

قلت: في مثل هذه الحالة وغيرها يُوضع القاتلُ في السِّجن، ثمّ يُحاكم، ويَلْقى جزاءه، ولكنّ المشكلةَ الكبرى، والمعاناة الموجعة تلحقُ بأهله.

قال: ما ذَنْبُ أهلِه حتى تلحقَ بهم المشكلة الكبرى، والمعاناة الموجعة؟

قلت: لا ذنبَ لهم، وليس في بطونهم، ولا ظُهورهم، ولم يشاوِرْهم ساعةَ أطلقَ الرَّصاصة.

قال: قلتَ عبارةً ما فهمتُ معناها الاجتماعيّ عندكم: "ليس في بطونهم ولا ظهورهم"!

قلت: معناها أنّهم أبرياء براءةَ الذئب من دم يوسف عليه السلام!

قال: فأين يذهبُ أهلُ القاتل؟

قلت: يَفْرِض عليهم العُرْف العشائريّ الجَلاء، أو ما يسمّى "الجَلْوَة"، فَيَجْلُون ويرحلون من القرية إلى بلدةٍ أخرى، يرحلُ رجالُهم ونساؤهم

وأطفالُهم، ويرحلُ أثاثُهم ومتاعُهم، وترحلُ أغنامُهم ودوابُّهم، وترحلُ أحلامُهم وأشواقُهم، ثمَّ يَنْزلون عندَ أناسٍ يفتحون لهم قلوبَهم وبيوتَهم، وتبدأ المعاناة، وقد لا تنتهي إلا بعد ثلاث سنين أو أكثر!

قال: هذا والله نزوحٌ جماعيّ، وعِقابٌ جماعيّ بسببِ فردٍ واحد، وكتابُ ربّكم يقول: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى".

ألا تقرأون القرآن، وأنتم الذين أهديتمُ الإسلامَ إلينا في إندونيسيا؟

لماذا يُرحَّل الناسُ كُلّهم، وتَشْقى العائلات، ويَشْقى بهم الذين يستقبلونهم؟

قلت: لأنّ قانونَ العشائر السّماعيّ غيرَ المكتوب ينصُّ على أنْ يجلوَ "أبو ثلاثة"، يعني يا شهابَ الدِّين إذا قتلَ أخوك إنساناً لا سمحَ الله، فيتوجّب عليك أنْ تجلوَ أنت وإخوتُك وأبوك، وأبناءُ عمِّك، إلا مَنْ "يعدّ على أربعة"، فهو "طالع"!

قال: إلامَ تظلّون تعدّون على أربعة وخمسة، والعالمُ اليومَ قد تجاوز العَدَّ على الأصابع، وصار يستخدم الحاسباتِ والحواسيبَ التي تُجْري مليونَ عمليّة حسابيّة في الدقيقة الواحدة؟!

يا جماعة، أليستْ لكم وثيقةٌ رشيدة، لِمَ لا تَحْصُرون "الجَلْوة" في دفتر العائلة، فَتُوافقون بهذا دينَكم، وتخفّفون عن أنفسِكم، وتَحُدُّون من النّزوح والتشرّد، ألا يكفي نزوحُ الفلسطينيين، أم تريدون أنْ تقيموا لكم مخيمات لاجئين داخلَ بلدكم؟!

إلامَ تظلّون هكذا: عَطْوة، وجَلْـوَة، وصُـلْحَة، وجمـل نـوم، وكفيـل وفـا، وكفيل دفا؟!

اصحوا يا ناس، فأنا أحبّكم، وقلبي يتمزّق ألماً علـى حـالكم، فـأنتم أهـل الكرم والنخوة، لا تستحقّون هذا العـذاب الوَبيـل الـذي تصـنعونه بأيـديكم وعاداتكم!

ثمَّ نظر إليّ فقال: احكِ يا بنَ الفلاح، ما لي أراك صامتاً واجماً؟

قلت: قطعَ شهابُ الدِّين قولَ كُلّ خطيـب، ومنـعَ كُـلَّ عِقـاب وتشـريد، وأسمعَ مَنْ كان له قلب، أو ألقى السّمع، وهو شهيد!

فهلْ للعشائر أنْ تدَّكِر؟!

(٢٩)

التّدخين والطّعن بالسّكين!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

لَمَّا استحصدَ الزّرع استبشرَ أهلُ القرية بالموسم، فهبّوا بقضِّهم وقضيضِهم، وهم يحملون الزَّاد، ويمتشقُون المناجل، حتى إذا وصلوا إلى الحقول أعملوا مناجلَهم فيها، وباتوا ليلَهم يفترشون الأرض، ويلتحفون السّماء.

ثم جُمِعَ الزّرع كلُّه في بَيْدر القرية، وأعدَّ الفلاحون دوابَّهم لِدَرْسِه، ولكنَّ جائحةً أصابت الزّرع فأصبحَ كالصَّريم؛ فقد خرج ثلاثةٌ من الشُّبان إلى البَيْدر ليلاً يسهرون على الشّاي والدّخان، فانبعثَتْ شرارةٌ من سيجارة أحدهم؛ فأحرقَت القمح والشعير والعدَس والحمّص، وهربَ الجُناة، وهُرِع الفلاحون غاضبين مَذْعورين، يضربون كفّاً بكفّ، ويقرعون سنّ الندم.

وتداعى أهلُ القرية إلى دار المختار، فتكلّم المختار عمّا جرى، وقال:

– نجتمع الليلة أيّها الأخوة، لنواجهَ خطرَ الحريق، وأقومُ سبيل لمواجهته هو التعقّل وضبط النفس. ثمّ احتدَّ مُرْغياً مُزْبداً:

وهؤلاء الهَمَل الزّعران، أليس في رؤوسهم عقول تمنعُهم من حَرْق المحصول، وتحفظُ أجسامَهم من هذه السُّموم؟ أما يخشون أنْ يحرقَ الدُّخان ملابسَهم وشعرهم؟! قبّحَهم الله بالويل والثُّبور!

وعقّبتُ على كلام المختار قائلاً:

- إنَّ هؤلاء يا حضرة المختار، جَهَلَة لا يعرفون أنّ الصّحة قوةٌ للبدن وحقّ له، جاء في الحديث: "وإنّ لبدنِكَ عليك حَقّاً"، ولا يدركون أنَّ الحياة الكريمة، والحضارة القويمة لا يصنعُها المرضى أو الكسالى، بل يصنعُها الأصحّاء الأقوياء.

فقام طبيب القرية فقال:

- أيّها الأخوة، إنّ أخطرَ ما يهدّدُ صحةَ الإنسان هو التّدخين؛ وما فيه من السُّموم الفتّاكة؛ فالسيجارة الواحدة تتكوّن من مُركّبات كيميائيّة تبلغ (٤٠٠٠) مركّب، منها (٤٠) مركّباً تسبّب السّرطان كالنيكوتين، وأول أكسيد الكربون، والسّيانيد، والزّرنيخ.

أمّا الأرجيلة فهي أشدّ خطراً، وأكثر ضرراً، فتدخين رأس أرجيلة واحد يعادلُ عشرَ سجائر، ولكم أنْ تتصوّروا الضَّرر الذي يلحقُ بالمدخّن إذا دخَّنَ رأسين أو ثلاثة رؤوس، ولعلَّ رأسَهُ لا يسلمُ بعدَ تلك الرؤوس المشتعلة!

وقام مديرُ المدرسة فقال:

- والمدخّن، لا يؤذي نفسَهُ فحسب، بل يؤذي كلَّ مَنْ يشمّ رائحةَ دُخَانِه، يؤذي أهلَ بيته، وكلَّ مَنْ يجالسُه أو يرافقُه، وأعجبُ العَجَب أنْ ترى مَنْ يدخّن في أروقة المستشفى، بل أنْ ترى مَنْ يدخّن أمامَ غرفة العَمَليّات، وغرفة العناية المركّزة!

ثم قمتُ مرّة أخرى فقلت:

- أيّها المبتلى بالتّدخين، لو قيلَ لك: إنّ هذا العصير الذي في الدّكان يسبّب السّرطان لما اقتربتَ منه، ولرميتَهُ في أبعدِ مكان، فكيفَ وعُلَبُ سجائرِك محشوّة بالسَّرطانات الخطيرة؟!

ثم جرَتْ مناقشة واسعة حول رَدْعِ المدخّنين عن تَكرار فِعْلتهم الشّنيعة، وأجمعَ الحاضرون قبيلَ الفجر على القرارات التالية:

أولاً- منع بيع الدُّخان في دكاكين القرية منعاً باتاً.

ثانياً- تغريم كلّ مَنْ يحمل سيجارة بأن يدفع خمسة دنانير.

ثالثاً- إعداد قائمة بأسماء المدخّنين، وملاحقتهم قضائياً عندَ قاضي العشائر.

رابعاً- حرمان المدخّنين من اجتماعات القرية، ومن التقدّم لخِطْبة أية بِنْت من بناتها.

خامساً- تخصيص أربع خُطَب من خُطَب الجمعة للحديث عن التدخين: آفاتِه وسُمومِه.

فما طلعَ النهار حتى ذاعَ نبأُ الاجتماع الطّارئ، وأُخرجَ ما في الدّكاكين من دُخَان، فأُحْرِقَ أمامَ أعين المارّة، وانثالَ الشُّبان المدخّنون على دار المختار يعتذرون، ويُعلنون أنّهم حرَّمُوه على شفاهِهم وأصابعهم تحريمَ الخَمْر.

ومَرَّ شهرٌ فإذا القريةُ خاليةٌ من السُّم الزُّعاف، فلا يد تحملُ سيجارة، ولا شفة تمصّ، ولا أنف ينفُث، حتى صفا نسيمُ القريـة، وسَلِمَتْ رِئَتُها ورِئاتُ أطفالها من الطَّعن بسكاكين التّدخين!

وحازَت القرية على إعجاب "منظمة الصّحة العالميّة"، وفازتْ بجائزتها التقديريّة، وذاعَ صِيْتُ "وادي الكَرْم" في أرجاء العالم، وتوافدَ عليها السّياح من كُلّ حَدَب يَنْسِلون!

(٣٠)

لَوْثَة لُبّ وسنة ثالثة حُبّ!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أتمّ حَنْظَل ثلاثَ سنين في الجامعة، فجاءني في العُطلة يسعى، وقد ارتدى ملابسَ رقيقة، وحَلَقَ وسطَ رأسه، وأبقى جانبيه طويلين فِعْلَ الفلاسفة والشُّعراء، وحَفَّ شاربيه، وخلعَ حذاءه، وراحَ يذرعُ الوادي ذهاباً وإياباً، وهو يُردّد:

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسمَها وَأَشبَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيا

وَدِدتُ عَلى حُبِّ الحَياةِ لَوَ انَّها يُزادُ لَها في عُمرِها مِن حَياتِيا

فناديته من بُعْد: يا حَنْظَل، يا حَنْظَل، ما أصابَك؟ هل اِلْتَاثَ عقلُك؟ الله يستر من الجامعة!

قال: أنا مجنون ليلى، أنا قيس لُبْنى، أنا كُثيِّر عَزّة، أنا "روميو"، تعالَي يا "جولييت":

إِذا خَدِرَت رِجْلي وَقيلَ شِفاؤُها دُعاءُ حَبيبٍ كُنتِ أَنتِ دُعائِيا

أَلَم تَعلَمي يا عَذبَةَ الرِّيقِ أَنَّني أَظَلُّ إِذا لَم أَلقَ وَجْهَكِ صادِيا!

قلت: اهدأ قليلاً، أنا أبوك، أنا أحقّقُ لك آمالَك، وأوصِّلُ حِبالَك بِمَنْ هم ببالِك، ولكنْ قلْ لي: ما الذي اعترَاك، ولوّثَ لُبَّكَ؟ وما الذي أصارَك إلى ما أرى؟

قال: بابا، درستُ مادة "شِعْر الحُبّ عندَ العرَب"، فأُعجبتُ بمجنون ليلى، وراقني ما كان يفعلُ من التَّعَرّي، والمشي حافياً، والتظاهر بالإغماء، فأنا الآن أعيدُ تمثيلَ المشهد!

قلت: يا سلام، تعلّمتَ كلمة "بابا" في الجامعة، ولم تَدْرِ أنّها ليستْ من العربيّة في شيء!

وتسلم يا ولد من الحسَد والعين! وهنيئاً لنا بك ممثّلاً!

ولو كانتْ لي صلة بالمخرج "حاتم علي" لقلت له: عندي ولد لَوْذَعيّ يضعُ في جيبه الصَّغير عبد الله غيث، ودُرَيْد لحّام، وأنطوني كوين!

قال: بابا، أنت لم تتخرّج في مدرسة الحُبّ، ولم تقرأ شعر الغَزل والنَّسيب، ولم تعرفْ بني عُذْرَة، وأنت مَعْذور، فمستواك التعليميّ مرحلة ابتدائيّة، ولم تسمعْ برائية عُمر في صاحبته نُعْم:

أَهيمُ إِلى نُعْمٍ فَلا الشَملُ جامِعٌ وَلا الحَبلُ مَوصولٌ وَلا القَلبُ مُقْصِرُ

فَقُلتُ لَها بَل قادَني الشَوقُ وَالهَوى إِلَيكِ وَما عَينٌ مِنَ الناسِ تَنظُرُ !

أمّا الدَّكاترة فَيَغْرِفون من بحر، ويصبّون ما يَغْرِفون في قلوبنا، حتى نقولَ لهم: يا دكاترة، رِفْقاً بالقَوارير، أي البنات، ورِفْقاً بالبراميل، أي نحن الأولاد!

فضحكتُ ساخراً مُتهكّماً، وأنا أُميلُ برأسي يمنةً ويسرة، فأحسَّ بمرارة سُخريتي، فقال:

- تضحك من الجامعة، ومن الدَّكاترة الجهابذة، ولو عَلِمُوا بك، لرفعوا عليك دعوى قضائيّة، دعوى تَقْدير شَرَف بعشرة آلاف دينار لكلٍّ منهم، وفي البلد اليوم عشرةُ آلاف دكتور، منهم ألف دكتور من بلاد الرَّافدين، وألف

دكتور من أبناء البلد العاطلين من العمل، فيكون مجموعُ المبالغ المطلوبة منك تقديراً لشَرَفهم مائة مليون دينار!

لا أنت ولا عشيرتك ولا قريتك تستطيعون تحصيل واحد بالألف منها، ولو عشتَ قَدْرَ ما عاشت نُسورُ لُقْمان!

قلت: يا ولد، هداك الله، مَنْ علّمك اتهام النَّوايا؟ والدَّكاترة ما شاء الله: بدلات وسيّارات، وشقق وعمارات، وهم مُسْتغنون عن قروشٍ معجونةٍ بعَرَقِ فلاحٍ كادحٍ مثلي!

قال: بابا، أنت مُغَفّل، والقانون لا يحمي المُغَفَّلين!

قلت: يبدو أنَّك جَرَعْتَ من اللّوثة والعَتَهِ والخَبَل جُرْعةً كبيرة حتّى تلامستْ أسلاكُ عَقْلِك، وانفصلَتْ شبكيةُ دماغِك، ففقدتَ التركيز!

ثمّ أحضرتُ ثلاثة شبّان من أصحاب العضلات المفتولة، وأعطيتُ كلّ واحدٍ ديناراً، وقلتُ لهم:

– أرأيتُم ذلك الشّاب الحافي، أحضروه لي، كما أُحْضِرَ لسليمانَ عَرْشُ بلقيس!

فما ارتدَّ إليّ طَرفي حتى رأيتُه أمامي مُقيّداً مُعلّقاً على شجرةِ لَوْز، وهو يرجو ويتوسّل، حتّى رقّوا له فقالوا:

– ما تريدُ أن تفعلَ به؟

قلت: أريدُ بهذه العصا الغليظة إعادةَ تشغيلِ حاسوبه الدّماغيّ، وتهيئةَ برامجِه، وتحديثَ نظامِه، وأريدُ أن أُخْرِجَ من جسدِه "مجنون ليلى" الذي تلبّسَهُ، وأفحصَ ميزانَهُ،كما يُفْحَص مِقْودُ السيّارة!

قالوا: نقسمُ عليك ألّا تفعل، وأرسله معنا، ونحن نعرفُ كيف نستعيدُ "ضَبْط المصنع"!

فأرسلتُه معهم، فأخذوه إلى بنَّاء تتعوّذُ منه الشَّياطين الحُمر، فحكمَ عليه بالأشغال الشّاقة، فحملَ "الإسمنتَ" على ظَهْرِه، ورفعَ الطُّوبَ على صَدْرِه!

فجنيتُ من ظَهْرِه وصَدْرِه عشرةَ دنانير، ما جناها أبو "مجنون ليلى" من ولدِه المجنون!

(٣١)

جَسَد مريض وأَمَل عَريض!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

يزدحمُ سوقُ القرية قُبيلَ الجمعة، فأزيدُ خُطى الزِّحام خُطوة، وأجلسُ في دكّان العمّ إسماعيل، فيأخذُ الجريدة، ويقرأ على مسامعي أخبارَ البلد، ويُعرِّج على الحوادث المؤسفة، والجرائم البشعة، ثـمّ يقـول: اسمـعْ يـا بـنَ الفـلاح، فأسمعُ ما يُدْمي الفؤاد، ويُندي الجبين!

أسمعُ عن حالات الإجهاض الناجمة عـن الشّـهوة الطاغيـة، والفاحشـة المستعرة، أسمعُ عن إلقاء الأطفال في حاويـات الزّبالـة، أسمـعُ عـن حـوادث السَّير التي يرتكبُهـا بعـضُ السّـائقين السُّـكارى، أسمـعُ عـن سـرقة الأمـلاك والمجوهرات، والاعتداء على البيوت، أسمعُ عن جرائم كثيرة قتلَ فيهـا الابـنُ أباه طعناً أو خَنْقاً أو حَرْقاً، أسمعُ وقلبي يعتصرُ ألماً!

فإذا فرغَ العمّ إسماعيل رمى بالجريدة وقال:

- الله أكبر، كأنَّ الزّمن تغيّر، وتّسَعْدَنَ البشر!

قلت: ما تغيّرَ الزّمن، وإنّما تغيّرَ الناس، وصارَ بعضُـهم كقـرد السَّـعَدان، والزّمن بريء لا يُتّهم:

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزمانِنا عيبٌ سوانا!

قال: عال العال، فما سرُّ كثرة الجرائم في زمننا الحاضر، وقلّتهـا في الـزّمن الغابر؟

قلت: طغَت المادة، وقَلَّ الخوفُ من الله، أمّا المادة فهي ميدانٌ للتصارع والتنازع كميدان الخيل، وأمّا قلّةُ الخوف من الله فتزيلُ الوازعَ الذي ينهى النفسَ عن الهوى، وتَنْزِعُ حزامَ الأمان الذي يحفظُ النفسَ من الوقوع في الجرائم والآثام.

قال: فعلاً، الذي يخافُ مقامَ ربّه العظيم المَهِيْب لا يُقْدِمُ على معصية، وإذا أقدمَ عليها قادَهُ الخوفُ من الله إلى النّدم والتوبة، والذي يخافُ مقام ربّه لا يؤذي أقاربه وأصحابه وجيرانه، ولا يعتدي على الأعراض والحُرُمات، ولا يفسدُ ما في بلده من مُنْجزات.

قلت: يا عمّ إسماعيل، الهوى هو أساسُ البلوى، وهو ينبوع الشّر، والخوفُ من الله هو الحاجز الصّلب الذي يمنعُ هجماتِ الهوى، وإذا أردنا أنْ نعالجَ الأجسادَ التي سمّمتْها الجريمة، فلا بدّ من شحنها بالخوف من الله، فهو البَلْسَم والأمل، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **[النازعات:٤٠-٤١]**

قال: لا بدّ إذن من شَحْن نفوس الشَّباب بالخوف من الله؛ لأن الخوف من الله شعورٌ دائم، وإحساسٌ يقظ، يلازمُ النفس التي يسكنُها، فلا ترتكبُ ما حرّمَ الله أو نهى عنه، إجلالاً لله تعالى، وهيبةً منه، وإتقاءً لسخطِه وعذابِه وعقابِه.

قلت: انظرْ يا عمّ إسماعيل، إلى ابن آدم الصّالح "هابيل" الذي ردّ على أخيه المجرم الذي يتوعّده بسفكِ دمه، اسمعْ ما يقول له: "لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ".

والعِبْرة في هذه القصّة أنّه إذا أرادَ المجتمعُ أن يسلمَ من الإجرام فعليه بتغذية الإيمان في نفوس أفراده، وربطِهم ببيوت الله التي أذنَ أنْ يُرفعَ فيها اسمُه، وتغذيتهم بمادة إعلاميّة نظيفة، وإلا فسوف تزدادُ معدلات الجريمة، وتسيلُ الدّماء إلى الرُّكب، ولا عاصمَ يومئذ من أمر الله إلا مَنْ رَحِم!

قال: يا بنَ الفلاح، دينُ الله يحرّم على الإنسان الصَّالح أنْ يغطّيَ على المجرمين، أو يحميَهم، أو يتوسّطَ للإفراج عنهم، يحرّم عليه أنْ يكونَ عوناً لهم على ظلم الناس، أو يكون نصيراً لهم، أو يجاملهم، أو يتملّقهم، أو يتقرّب إليهم، أو يبرّر لهم أعمالَهم، أو يدافع عنهم، أو يكون ظهيراً لهم في مصنعه ومعمله، أو في مكتبه ووظيفته، أو في بيته وبلدته!

قلت: لا بدَّ إذن من معاهدة الله على التصدّي للمجرمين كما عاهد موسى عليه السلام ربَّه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

لا بدّ من التصدّي للمجرمين كلّهم، وتعريتهم أمامَ الناس: فالسّارق مجرم، والزَّاني مجرم، وآكلُ الرِّبا مجرم، والقاتل مجرم، ومتعاطي المخدّرات مجرم، والفاسدُ مالياً وإدارياً مجرم.

ثمّ نهضَ العمّ إسماعيل، وأغلق الدّكان، وانطلقنا إلى المسجد، وهو يقول:

يا لله، ما أعظمَ الانتصارَ على النفس، وما أقسى أن يُهْزمَ الإنسانُ أمام هواه، فيتحوّل إلى وحشٍ مجرم!

(٣٢)

شركة عُرْقُوب للموَعْدِ المكذوب!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أُهْدِيتْ إليَّ قطعة قُماش، فأخذتني نشوةُ الأمل بأن أَرْفُلَ في ثوبٍ مُفصَّلٍ جديد، وأتزيّا به يومَ العيد، فطرتُ بالقطعة إلى الخيّاط، فقاسَ وشَبَّر، ودَرَّعَ ومَتَّر، ثمَّ وعدني بأنْ يكون الثوبُ جاهزاً بعد أُسبوع، فاتفقنا، ونَقَدْتُه العُرْبون.

ورجعتُ إليه بعد أسبوع، فإذا قطعةُ القماش كما هي، لم يمسّها مِقَصّ، ولا قبّلتْها إبرة، ولا شَقَّها خيط، فقلت:

- لقد وعدتني يا معلّم، ولم تفِ بوعدك، أين الثوب؟

قال: "معلش" أنا آسف، وحقّك عليّ، واللهِ العظيم سيكونُ جاهزاً الجمعة القادم.

وكظمتُ غيظي، وركبتُ الباص قافلاً، وقعدتُ بجوار شيخ، فسألني: ألك مصلحة في المدينة؟

قلت: ثوب وضعتُه عند خيّاط، ووعدني فأخلف، حتّى نزعَ من نفسي فرحةَ الهدية!

قال: اسألني أنا المجرّب، اسألني عن الحدّادين والنّجَّارين ومعلّمي البناء والميكانيكيين والخيّاطين، لقد عاملتُهم أكثرَ من خمسين سنة، فما رأيتُ ناساً يخلفون الوعودَ مثلهم!

قلت: في كتاب الله أمرٌ للعباد بأن يوفّوا بالعهود، ويؤدوا الحقوق؛ لأنّهم سيُسألون عنها يومَ القيامة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء:٣٤]

وغفا الشّيخ ونام، ونزلتُ من الباص، وشُغلتُ بالحقل طيلة أسبوع، وزدتُ على الأسبوع أسبوعاً؛ لكي يأخذَ الخيّاط وقته، وتنتفيَ أعذارُه، ويكونَ الثوبُ جاهزاً!

وهرولتُ إلى المدينة بعدما أخذَ عليّ أولادي المواثيق بأنْ آتيَهم بحُلْوان الثوب، ودخلتُ مستبشراً واثقاً أقول:

الثوب جاهز الآن بعد هذه المدّة الطويلة، أليس كذلك يا معلّم؟

قال: هو جاهز، ولكن "معلش" بقيَ تثبيت الأزرار، وعَمَل الأكمام!

قلت: لا إله إلا الله، أنت تصنع طائرة، أو تحاول فَكّ حَجَر رَشيد، أو تُفصِّل بدلاتٍ لروّاد الفضاء في محطة "مِيْر"؟

ألم تقسمْ بالله العظيم؟ أم أنَّ القسمَ عندك محضُ لَغْو، وفقاعاتُ في الهواء؟!

قال: "معلش"، اسمع يا عمّ، أنا بريء من الأخلاق إذا لم يكن ثوبُك جاهزاً بعد يومين!

فهززتُ رأسي، وخرجتُ، وعرّجتُ على محلّ الكُنافة، لأفيَ بوعدي لأولادي.. فما سمعوا صوتي من بعيد حتى علا غناؤهم: ثوب جديد، وحُلو، وعيد.. ثوب جديد، وحُلو، وعيد!

فنظروا فإذا ملابسي كما هي، فانكسرَتْ نظراتهم، فقلت:

- لا تحزنوا قد جئتكم بالحُلْوان!

قالت أمّ حَنْظَل: هل بعتَ الثوب؛ لتشتريَ لهم بثمنه ثيابَ العيد؟

قلت (مُردّداً لازمةَ الخياط ووعده): "معلش"، بعد يومين سيكون جاهزاً!

قالت: ما أكذبَهم، وما أطولَ بالهم، وما أقلَّ دينَهم، يتصرّفون كالمنافقين، ولقد سمعتُ من المِذْياع حديثَ رسول الله ﷺ الذي يقول: "آية المنافق ثلاث" وذكرَ منها: "إذا وعدَ أخلف".

قلت: إنجازُ الوعد يا أمّ حَنْظَل، مؤشّرُ على نجاح الإنسان في حياته، ودليل على رقيّه، وسموّ مَنْزلته، ورفعة مستواه الاجتماعيّ، والعكس بالعكس!

وإخلاف الوعد مرضٌ عند كثير من التّجار والصّناع والموظّفين الذين يستهينون بأمر الله؛ إذ ليس العهدُ كلمة طائشة تُلْقى، بل هو مسؤولية، ودَيْن واجبٌ على الحُرّ: "وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ".

إنّه عهدُ الله أُضيفَ إليه، فاكتسبَ القُدْسيّة، ووجبَ الوفاء به مهما تكن الظروف.

وهم في خطر؛ لأنّهم يعطّلون المصالح والأعمال، ويضيّعون أوقاتاً ثمينةً من حياة الناس.

وهم في خطر؛ لأنّهم يشوّهون سمعةَ الأمّة، حتى ضُرِبَ بنا المثل في إخلاف الوعد، وصرنا نتغنّى بالوعد الإنجليزيّ، والأممُ تفاخرُ بدقة مواعيدها في التجارة والصناعة والمعاملات والاتفاقيّات!

بل إنّ الناسَ في الجاهلية كانوا يذمّون مَـنْ يخلـفُ وعْـدَهُ مثـل عُرْقُـرب، ويضربون به مَثل السَّوء:

كانتْ مواعيدُ عُرْقُوبٍ لها مثَلاً   وما مواعيـدُهُ إلا الأباطيـلُ!

ثمّ بعدَ شهر رجعتُ إلى الخيّاط، فقال لي:

- "معلش"، الثوب جاهز، بَسْ بقي عَمَل جَيْب له!

قلت: ما جئتُك من أجلِ الثـوب، وإنّمـا جئـتُ أرشّـحُك رئيسـاً لشـركةٍ عالمية، لها آلافُ الفروع في المدن والقرى!

قال: وأنا أقبلُ رئاسةَ الشّركة دون مناقشة، "معلش" ما اسمها؟

قلت: شركة عُرْقُوب للموعدِ المكذوب!

وعلّقتُ اللافتة على باب المخيطة، وانصرفتُ مُقَهْقِهاً!

(٣٣)

مواطن مَشْلول وسيفُهُ مَسْلول!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

نُصِبَتْ خيمة غريبة عندَ عين الماء، فوردتُ النّبعَ أستكنهُ الأمر، فوجدتُ أُمّةً من الناس يَسْقُون، ومن دونهم جماعةٌ قد لَزِمَتْ خيمةً بالية، فسألتُ الرُّعاة:

- أتعرفون هؤلاء؟

قالوا: إنّهم غرباء عن القرية، يَنْزلون ويرتحلون.

قلت: فما يَبْغُون؟

قالوا: إذا أردتَ أنْ تعلمَ نبأهم، فاذهبْ إلى حقلِك، وسيأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزوِّدِ!

وامتثلتُ نُصْحَ الرّعاة، وقلت: خُذ الحكمة يا بنَ الفلاح، من أفواهِ الرّعاة، فهم أهلُ البَرّ، وهم على معرفة مَنْ في الخيامِ أخْبَر، وعلى قراءة ما بينَ السُّطورِ أقْدَر!

ورجعتُ إلى الحَقْل، وشرعتُ في سَقْي البَصَل والفِجل، فإذا رجلٌ يتسوَّرُ عَليَّ الكَرْم، ففزعتُ منه، وقلتُ:

- مَنْ هذا الذي لا يأتي البيوتَ من أبوابِها؟

قال: أنا صاحب، لا تَخَفْ.

قلت: ومَنْ تكون؟ وما تريدُ منّي، والشّمسُ لم تَطْلُعْ بعدُ من حِجابها؟

قال: أنا سائلٌ محتاج من أهل الخيمة المضروبة عندَ عين الماء، وأريدُ منك تشكيلةً من الملابس الإنجليزيّة، وتنكة زيت بلدية، وسجّادة إيرانية، وكيس سُكّر نخب أوّل، وعشرة دنانير أردنيّة!

قلت: يا سلام، تطلب منّي، وكأنّي "بل غيتس"، أو كأني مدير بنك، ألم تعلم أنّ كُلَّ طَلَبٍ منها يجعلُ ميزانيتي صِفْراً، ويرمي بي إلى أحضان صندوق النقد الدّولي؟ أجملْ في الطَّلَبْ يا رَجُل!

فأخذَ يتوسّل، ويدعو لي، ويذكر أنّه مسكينٌ يتلظّى جوعاً وعطشاً، ويتأذى غايةَ التأذي؛ إذ يرى أولادَهُ جَوْعى، لا بيتَ لهم ولا مأوى، ولا سقفَ يظلّهم، ولا ما يسترُ عوراتِهم.

قلت: العملُ خيرٌ لك من التسوّل، العملُ يحفظُ ماءَ وجهك، ويطعمُك من كَدِّ يدِك، ويعوّدُك الاعتمادَ على نفسِك، ويخلّصُك من الخِزْي في آخرتِك، قال رسولُ الله ﷺ: "ما يزالُ الرَّجلُ يسألُ النَّاس، حتى يأتيَ يومَ القيامة، وليس في وجههِ مُزْعةُ لحم".

قال: ضاقت عليّ أبوابُ الدّنيا، فلا أجدُ لي عملاً غير التسوّل، فأنا مُضطرّ.

قلت: ولو كنتَ مُضطراً فلا يجوزُ لك التّسوّل، بل يجبُ عليك العمل، فهو شِرْيان الحياة، وما أكثر أبوابه! واجعلْ يدَك عُليا، ولا تجعلها سُفلى، ولو كَسَّرْتَ الحجارة، وإياك أنْ تأخذَ من الناس شيئاً؛ فإنّما هو جَمْرٌ تضعُه في

جيبك وحَلْقِك ومَعِـدَتِك، وتطعمُـهُ أولادَك، قـال رسـولُ الله ﷺ: "مَـنْ سـألَ الناسَ أموالَهم تَكثُّراً؛ فإنّما يسألُ جَمْراً؛ فليستقلَّ، أو ليستكثرْ".

وأنتَ بالتسوّل مواطن مشلول، تأخذُ ولا تعطي، بـل تَسُـلُّ سـيفَك علـى جيوبِ الناس ورقابِهم وعَرَق جبينِهم، وتقتاتُ من تَعَبِهم، وتَـبْني غِنـاك علـى إفقارِهم!

فأحسستُ أنَّ نفسَهُ لانت، فزدتُ في العِظة، وقلت:

– وقد وردَ ثناءٌ عاطرٌ في القرآن على الفقراء والعائلات المتعفّفة المستورة، حتى إنَّ الجاهلَ بأمرِهم ليحسبُهم أغنياءَ في لباسِهم وحالهم، فهـم لا يسـألون الناس إلحاحاً لما في أيديهم، أو طمعاً في الاستكثار من المال أو المتاع، قـال الله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ ﴿٢٧٣﴾﴾ **[البقرة:٢٧٣]**

وكذا وردَ منعٌ قاطع عن إعطاء المتسوّل القادر على العمـل، قـال رسـولُ الله ﷺ: "لا تحلُّ الصّدقة لِغَني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوي".

وأنا أراكَ قوياً قادراً على إزاحة هذه التَّلَة في ساعة!

والآن اصدقني القول، وإيّـاك والكـذبَ بعـدما سمعـتَ آيـاتِ الله تُتلـى عليك، وأحاديثَ رسوله تُلْقى على مسامعِك، هل أنتَ محتاج، أم هـي العـادة والطَّبع والثراء السّريع؟

قال: والله يا شيخ، لقد أصبح التسوّل عندنا مِهْنة، نجني منه الأموالَ الطائلة، ونحقّق به أمانينا، فلنا شقق مُؤجّرة، ومحلات تجارة فاخرة، وهذه الخيمة نستخدمُها غرفةَ عمليات لجمع الأموال، ولنا شبكة من المراسلين مربوطة بالهاتف النقّال!

قلت: فأعلنْ التوبة لله الواحد الغفّار، واحلفْ بالله العظيم بأنْ لا تعود إلى التسوّل مرّةً أخرى.

وجئتُ له بالمُصْحَف؛ ليضعَ يدَهُ عليه ويُقْسِم، فما إنْ مَدَّ يدَهُ حتى اختطفَهُ شخصان مُلثّمان، وهو يستغيث: أنقذني يا شيخ، أنقذني يا شيـ.. ثمّ طاروا به، وقلعوا أوتادَ الخيمة وهربوا!

(٣٤)

بَهْدَلة يابانيّة في قرية عَربيّة!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

وَفدَ على القرية مُدرّب يابانيّ رياضيّ يقالُ له "كوتا متسي موتـو"، فأعمـلَ فكرَه، وبذلَ جُهدَه، حتى غدا للقرية فريقُ "جُودو" يمثّلُ البلـد، وينـافسُ الفِـرَق العالميّة، ويحصِدُ الميداليات الذّهبية.

وظلّ اليابانيّ مدّةً في القرية يدرّبُ الفريق، ويعـيشُ مـع النـاس، ويـتعلّمُ العربيّة، ويأكلُ المناسف!

فآليتُ ألاّ أفوِّتَ فرصةَ اللقاء به، فاتصلتُ بـابن القريـة "العُـرَيني" المـدرّب الجوديّ، وضيّفتُهما في الحَقَل، وجعلتُ مقدّمة الضّيافة رُمّانـاً حُلْـواً، فعجـبَ "كوتا" من الحَقْل، تنسيقِه، وجمالِه.

فقلت: بل العَجب العُجاب عندَكم معشرَ اليابانيين، مـدن راقيـة، وتَقْنيـة باهرة، وحقول ساحرة، فكأنّما حِيْزَتْ لكم الدّنيا بحذافيرها!

قال العُريني: أرجو أنْ تعلمَ يا بـنَ الفـلاح - قبـلَ أنْ يجيـبَ "كوتـا"- أنَّـني زرتُ اليابان، ورأيـتُ فيهـا العَجـب العُجـاب الـذي تـذكرُه، رأيـتُ النّظافـة الفائقة، والنّظام الدّقيق، والالتزام بالوقت والمواعيد، فلا ترى سـيجارةً مُلقـاةً على الأرض، بل ولا عُود ثقاب، ولا تسمعُ بوقَ سيارة، ولا تجدُ إنساناً فارغاً عاطلاً من العمل، وإذا رأيتَ ثمَّ رأيتَ القطارات التي تسير خطوطُهـا السـتّ بعضها فوقَ بعض في باطنِ الأرض!

قال كوتا: ليس العجب في هـذه الإنجـازات، بـل هـو في الإنسـان صـانع المُعْجزات!

قلت: ما أحسنَ سَجْعَك، وما أبلغَ إيجـازَك! وكيـف ذلـك يـا بـنَ متسـي موتو؟

قال: الواحد منّا يسير كالقِطار في اتّجـاه محـدّد، وفـقَ خُطّـة معلومـة، إلى هدف مرسوم، وينطلقُ من منظومةِ قِيَم يبذلُ في سـبيلِ تحقيقِهـا جُهْـدَهُ ووقتَـهُ ونفسَهُ!

قلت: فما مفرداتُ منظومةِ القيم هذه؟

قال: حُـبّ الإمبراطـور، والتفـاني في العَمَـل، وتقـدير الـذّات، ولا يُعـدّ الياباني مُنْتَمياً إلا بمقدار ما ينجزُ من هذه المنظومة!

قلت: فكم ساعةً يعملُ أحدُكم في نهارِه من أجل يابانِه؟

قال: لقد أجابتْ عن سؤالِك دراسةٌ بيّنتْ أنَّ العامل اليابـانيّ يعمـلُ (٨) ساعاتٍ في اليوم، وتكونُ حصيلةُ إنتاجِه (١٦) ساعة، وأنَّ العامـل الأمريكـيّ يعملُ (٨) ساعاتٍ في اليوم، وتكونُ حصيلةُ إنتاجه (١٢) ساعة.

أمّا العاملُ العَرَبيّ فيعمل (٨) ساعاتٍ في اليوم، وتكـونُ حصـيلةُ إنتاجِـه ساعة واحدة فقط، ويَهْدِرُ سبعَ ساعات!

يعني أنّكم مُتخلِّفون، وتَقعون في ذيلِ قائمة الإنتـاج العـالميّ، أمَـا عنـدَكم منظومةٌ من القِيَم تنقذُكم من ضَحك الأممِ عليكم؟

قلت: بلى، عندنا أسمى منظومة في الوجود، عندنا قـرآنٌ يُتلـى يُحـرِّضُ على العَمَل، ويجعلُه عبادة، وعندنا سُنّة مُطهّرة تجعـلُ أحـبَّ الأعمـال إلى الله

إتقان العمل، اسمعْ حديث نبيّنا محمّد ﷺ: "إنَّ اللهَ يُحِبّ إذا عملَ أحدُكم عملاً أنْ يُتقنَهُ".

فصفّقَ كوتا بيديه، وقال:

- عظيم جدّاً، لو كانتْ هذه المنظومة عندنا لكنّا في زُحل وعطارد!

ثمَّ قطّب جبينَهُ، وقال (مُتحسِّراً):

- ولكنّكم لم تأخذوا بشيء من هذه المنظومة، لقد رأيتُ بعض العمّال عندكم والموظّفين يعطّلون مصالحَ الناس بشرب الشّاي والقهوة والمكالمات الهاتفيّة، ويُشْغلون أنفسَهم بقراءة الجريدة، وحلِّ الكلمات المتقاطعة، ويقضون دوامَهم في التسوّق، ولا يبقى منهم في مكاتبهم إلا جاكيتاتهم المعلّقة على الكراسي!

أرجو يا بنَ الفلاح، أنْ أزورَ بلدَكم في العام القادم، وقد أتْقنتُم شيئاً آخر غير المَنْسَف الذي تأكلونه بالخَمْس..

إنّي أحبُّ بلدَكم حُبّاً جمّاً، أحبُّ كرمَكم وطيبتَكم، فكم مرّةٍ دخلتُ فيها على محلّ في القرية؛ لأشتري حاجة، ولم يأخذ مني التاجر شيئاً، بل يعطيني حاجتي مجّاناً، ولو كانتْ غاليةَ السِّعر، ويقول لي: أنت ضيفٌ علينا!

فسكتُّ وسكتَ العُريني، ونظرنا في السّماء نتمنى أن نعيشَ في زُحل وعطارد كما قال "كوتا"!

(٣٥)

يَحْيَى فوقَ القِمَّة العليا!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

بلغَ ولدي "هبوب الرّيح" أَشُدَّه، وأوتي نُضْجَهُ ورُشْدَه، وبلغَت الثانويةُ العامة أجلَها، ودقَّت الأبوابَ امتحاناتُها، فجمَعْتُ أهلي في الحَقْل، وأعلنتُ من فوقِ صَخْرة حالةَ الطّوارئ القُصوى، وقلت: يا هبوب الرّيح، أريدُك أنْ تكونَ مثلَ "يحيى"، تقرأُ وتجتهدُ وتسعى.

قال: يحيى! ما في القرية طالبُ عِلْم، أو عالِمٌ اسمه يحيى أتّخذُهُ لي قدوةً في عُلوِّ الهمّة، وكلُّ مَنْ سُمِّي يحيى فيها هم أميّون، فمَنْ يحيى الذي تعني؟

قلت: أعني نبيَّ الله يَحْيَى عليه السلام الذي سمّاه ربُّه، ووهبَهُ لنبيِّه زكريا عليه السلام، بعدما بلغَ من الكِبَر عِتياً، وكانت امرأتُهُ عاقراً.

قال: وهل كان يحيى هذا طالبَ ثانوية عامة حتى تذكرَهُ لي، وتضرِبَ به المثَل؟

قلت: بل كان نبيّاً رسولاً، ومَضْربَ المثَل في الشّخصية الفذّة، والمَسْلك القويم، على الرّغم من حداثة سِنّه، فكان يتميّز بالجِدِّ والاجتهاد، والحكمة ورَجاحة العقل، والصّلاح وطهارة النَّفس، والوَرَع وبرّ الوالدين، والتواضع لكلّ إنسان، والرّفق بكلّ مخلوق.

اسمعْ ما يقولُ الله تعالى عن سيرة نبيّه يَحْيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ
وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن
جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٢-١٥]

قال: فما معنى "خُذ الكِتابَ بقوّة"؟

قلت: يأمره ربُّهُ جَلَّ ثناؤه بأنْ يأخذَ التَّوراةَ بالجِدِّ والاجتهاد، والعزيمة الماضية، والهمّة العالية، والصّبر والمصابرة، وتحمّل المشاقّ ودوام المثابرة.

وما أحوجَك يا "هبوبَ الرِّيح" إلى أخْذ العِلْم بقوّة، وأخْذ الامتحانات بقوة، على أنْ تكونَ هذه القوّة كقوّة الإنسان الذي يحملُ كيساً فيه مائة ألف دينار، فإنّه يمسكُه بكلتا يديه، حريصاً عليه، صارفاً نظرَهُ إليه!

وعلى أنْ تكونَ هذه القوّة كقوّة أبٍ سقطَ طفلُه في بِرْكة ماء، فإنّه يقفزُ إلى الماء في سُرعة البرق، ويحملُ طفلَهُ بين يديه، وينقذُه من الغرَق!

والعجبُ أنَّ بعضَ أهل العلم قد تراخَوا، بينما أهلُ الدنيا كُلّهم يَأخذونها بقوة، ففي سُوق القرية تاجر يأخذُ جمعَ المال بقوّة، فلا ينامُ ولا يهدأ، وربما أكلَ وهو واقف، وربما غفا قليلاً في المحلّ؛ ليجدّد نشاطه وينطلق، وتراه يدعو فلاناً وفلاناً إلى طعامِه ابتغاءَ مزيدٍ من التّسهيلات الماليّة!

قال: كلامُك يا أبي، محشوّ باللطائف كما تُحْشى بالجوزِ القَطائف، ما قرأنا مثلَهُ في كُتُب المدرسة، فمن أين لك هذه الحِكَم والأمثال، وروائع الأقوال؟

قلت: من تلاوة القرآن وتدبّره، والإبحار في أسفار الأدب، وإدامة النظر في الرّقائق، وصُحبة أستاذ، وطُول زمان، وقد أخذتُ ذلك كُلّه بقوة، فهذا سِرُّ الكلام الحُلو، والأسلوب الشّائق!

قال: كأنّك - بإلحاحِك على أخْذ أمور الحياة بقوّة - ترسلُ رسائلَ متعدّدة إلى الناس كافّة، إلى طلبة العلم، والعمّال، والصُّنّاع، والمزارعين، والموظّفين، وربّات البيوت، وإلى الأمّة كُلّها؟

قلت: أجلْ، يا بُنيّ،

إذا أخذَ الطّالبُ العلمَ بقوّة، واتّصفَ بما اتّصفَ به يحيى، فإنّه سيحيا.

وإذا أخذَت البنتُ الاحتشامَ بقوة، واتّصفَتْ بما اتّصفَ به يحيى، فإنّها ستحيا.

وإذا أخذَت الأسرةُ التربيةَ بقوّة، واتّصفَتْ بما اتّصفَ به يحيى، فإنّها ستحيا.

وإذا أخذَ المجتمعُ التعاونَ والتآلفَ بقوّة، واتّصفَ بما اتّصفَ به يحيى، فإنّه سيحيا.

وإذا أخذَت الأمّة الإبداعَ والاختراعَ بقوّة، واتّصفَتْ بما اتّصفَ به يحيى، فإنّها ستحيا.

ستحيا الأمّة بأبنائها وبناتها، وستكونُ أيامُ مولدِهم أعياداً، وأيامُ عيشِهم أفراحاً، وستكونُ الشَّدائدُ والخطوب عليهم بَرْداً وسلاماً!

وبغير القوّة يا بُنيّ، سترسُبُ أنت، وأرسُبُ أنا، وترسُبُ الأمّة، ولَنْ تحيا أنتَ بسعادة، ولَنْ أحيا أنا بكرامة، ولَنْ تحيا الأمّة بِعِزّة!

فيا هبوبَ الرّيح خُذ العِلْمَ بقوّة!

(٣٦)

ورقة في الخُرْج وورقة في الدُّرْج!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

حينَ ارتفعَ الضّحى من النّهار جاءَ إلـيَّ في الحقـل ثلاثـةُ رجـال يرتـدون البدلات الرّسمية، ويزيّنون أعناقَهم بالرّبطات الأجنبيّة، يلتمعُ مـن وجـوههم ألَقُ النّعمة، ولا يُرى عليهم أثرُ السَّفر، فقالوا:

- أنت مدعوّ إلى إلقاء ورقة في المؤتمر الدّوليّ "الفلاحة: خبزُ العالم وأمنُه".

قلت: معاذ الله، كيف أُلقي ورقة، وأُلوِّث بها البيئة، وأنا الذي ما ألقيـتُ علبةً فارغة، أو زجاجةً حارقة، أو بقايا فاكهة إلا في حاوياتها المخصّصة! إنّكم لتقولونَ مُنْكراً من القولِ وزُوراً!

قالوا: بل جئناك بالحقّ، وإنّمـا نعـني بالورقـة أن تُعِـدَّ بحثـاً عميقـاً دقيقـاً وتُلقيه، وتمثّل به قريتَك.

قلت: فأين أُلقيه؟ وعلى مَنْ أرميه؟

قالوا: تُلقيه على طائفةٍ من الأساتذة الأكاديميين والمهندسـين وجمـعٍ غفـير من الفلاحين في المؤتمر الذي يجمعُهم، ويمثّلُ فيه كلُّ واحدٍ قريتَـهُ، أو مدينَتَـهُ، أو بلدَهُ.

قلت: أنا ابـن الفـلاح دارس الصّـف السَّـادس أُلقـي بحثـاً علـى علمـاء الفِلاحة؟ أمَا وجدتُم غيري؟ ألا تَدْعُون دكتور القرية بدلاً منّي؟

قالوا: دَعْنا، فما كُلّ مَنْ تَدَكْتَر مهَرَ وخبَر!

قلت: فأين يُعْقد المؤتمر الموقّر، وفي أيّة ساعةٍ من الزّمن؟

قالوا: في جامعة "الماء والخضراء والوجه الحسَن"، ضُحى الأربعاء آخر الشّهر الميلاديّ.

قلت: على الله الاتّكال، موعدنا المؤتمر، يومَ يُحْشر الناس ضُحَى!

ثمّ اتّخذتُ من دون أهلي في الحقل مكاناً قصيّاً، وأعددتُ ورقتي، وجعلتُ عنوانها "استلهام الخطاب القُرآنيّ في الفِلاحة النّاجحة"، حتّى إذا انعقدَ المؤتمر، وظهرَ البرنامج والجدول، وابتدأت الجلسات انقبضتْ نفسي، لِمَا رأتْ من الإفراط في المِزاح، والإغراق في اللّجاج، والتنازع على الوقت، فكلٌّ يريدُ أنْ يقول ويُطيل، ويتمنى لو رُبط الميكروفون بفمِه، فلا يبرحه!

ولِمَا رأتْ نفسي من طَعْن العربيّة لغة التّنْزيل بخناجر العاميّة والرّطانة الأجنبيّة.

ولِمَا رأتْ من نفوسٍ أكاديمية تهفو إلى القعود في الصفّ الأول مع معاليه، وعطوفته، وسعادته، فهي تدور وتدور.

ولِمَا رأتْ من أسماء لامعة، ولكنّها عندَ الإلقاء فارغة!

واشتدّ انقباضُ نفسي، وبلغ غيظُها الزُّبى، فقرّرتُ الانسحاب، وجمعتُ أوراقي وخرجَتُ، فلحقَ بي نفرٌ من اللجنة التّحضيريّة عند بوابة الجامعة فقالوا:

- أين تذهب، ولم تُلقِ ورقتَك؟

قلت: إلى القرية الوادعة حيث الحَقْل، فما عدتُ أحتملُ الاستعراض، وما بقي في رأسي عَقْل!

قالوا: هذا شأن المؤتمرات كُلّها، فلا تعجبْ ولا تغضبْ، ونقسمُ لك بـالله إنّها لكذلك: عرض بطولة، وتسويق نَفْس، وعلاقات ناعمة، وأكْل مناسف!

قلت: أمَا في الجمع من أحد يُلْقي من غير استعانة بالورقة؟ أمَا فـيهم مَـنْ يستطيع أنْ يُكلّم الناس بفمه لا بعينه، ولو مدّة دقيقـتين؟! مـا لرؤوسـهم قـد نُكِّستْ، وغابتْ أبصارُها في الأوراق؟!

قالوا: ارجع يا بن الفلاح إكراماً لرئاسة الجامعة، وعمادة الكلية.

فرجعتُ وألقيتُ ورقـتي ارتجـالاً بلسـان رَطْـب، عـن ظَهْـر قلـب، فَسُـرّ الحضور، وقالوا:

- من أيّ العُصور هذا العصفور؟

قلت: من عصرِكم يا مَنْ تدّعون وصلاً بليلـى، وبـاطنُ أمـرِكم أنّكـم لا تريدون إلا وجهَ السُّمعة والتَّرْقية!

فانحنى عليّ عاقل منهم وقال:

- أمْسِكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ مقعدُك، فالقوم عصبيون، وأخشـى أن تشتعلَ بينك وبينهم مشاجرة، فتُحمَّـل السَّـبب في فشـل المـؤتمر، وتُحـوّل إلى المحكمة؛ لأنَّ فشل المؤتمر خـطّ أحمـر! وعلـى المـؤتمر آمـال معقـودة في إشـهار الجامعة!

فأمسكتُ لساني، وقلتُ (في نفسي): يرحم الله أبا حامـد الغزالـي الـذي تعلّم من اللصّ الذي سرقَ خُرْجه، تعلّم منه أنَّ العلـمَ في الصَّـدر، ولـيس في الخُرْج!

وهؤلاء يستخرجون أوراقَهم من الخُرْج، ثمَّ بعدَ انتهاء المؤتمر تُوضع في الدُّرْج، فلا يستفيد منها أحد، ولا ينتفع منها البلد!

وغلى الغيظُ في أضلعي، فانسحبتُ مرّة أخرى، فقالوا:

- أين تذهب؟ الغداء جاهز!

قلت: في الحَقْلِ قد نطقَ الشَّجر، لا مُؤْتمر لا مُؤْتمر!

(٣٧)

حَرْب باردة بالهواتف السَّاخنة!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

لّما اتّصلَ أثيرُ القرية بالأقمار الصّناعيّة، وضعَ الناسُ أيديهم على قلوبهم، فإذا هي تَنْبِضُ بالفرح والدّهشة، ثمّ نظروا في أيديهم، فإذا فيها هواتف خلويّة ذاتُ أنواعٍ متعددة، وأحجامٍ مختلفة، تصلُهم بالعالم شرقِه وغربِه، فلا يحتاجون بعد اليوم إلى إجهاد أقدامِهم أو دوابّهم من أجل التواصل والتخاطر، أو تبليغ رسائلَ عنهم خَفَّ مَحْمَلُها!

وانتظمَ أثير القرية بأثير العالم رَدْحاً من الزّمن، حتى تعكّرَ بَثُّ شبكتِه، واضطربتْ تردّداتُه، يومَ نَشِبَتْ مشاجرةٌ بالأيدي المدجّجة بالعِصيّ بين عائلتي الشَّيخ إطْرَاد، والشَّيخ جَدّوع!

كانت شرارةُ المعركة قد انبعثَتْ من هاتفِ شابٍّ أرسلَ إلى فتاةٍ رسالة نصّية، فاطّلعَ إخوتُها على الرِّسالة، فهاتفوا إخوة الشّاب، فتواعدَ الفريقان على زمن النِّزال ومكانِه!

ثمّ فَضَّ الناسُ الاشتباك، وابتدأ كُلُّ فريق من المتنازعين يتّصلُ بالآخر، ويُسْمِعُهُ أغلظَ الكلام وأخشنَه، ويُرسلُ إليه أقبحَ العبارات، ويُزعجُهُ بالرَّنين بعدَ منتصف الليل!

ودُعِيَتْ هيئةُ الإصلاح إلى الاجتماع العاجل من أجل وَقْف هذه الحرب الباردة التي تعصفُ بطبقة "الأوزون" و"التروموسفير"، وتنذرُ بانتشار النار من مُسْتَصْغر شَرَر الهاتف!

وعقدَت الهيئة اجتماعاً تشاورياً في بيت المختار، فقال المختار والحاج عوّاد:

- أنتَ يا بنَ الفلاح، أعرفُنا بموضوع الهواتف، وما أدراك.. ونريدُك أن تكونَ المتكلّم الأوّل في الجاهة.

قلت: إنْ شاء الله تعالى.

وقلتُ في نفسي: علّمتني شقاوة "حَنْظَلَ" كُلَّ الفنون والجنون!

قال المختار: سمعتُ بأنّ سببَ المشكلة رسالة، فما أدري ما الرِّسالة؟

قال الحاج عوّاد: يبدو لي أنّهم يتنازعون على رسالة الإسلام، أيّهم يتولى إبلاغَها، أو يختصمون على كتاب عبد الوهاب عزّام "الرّسالة الخالدة"، أيّهم يستعيرُه، أليس كذلك؟

قلت: لا هذا ولا ذاك، إنّ الرّسالة المقصودة هي عبارات نصّية قصيرة تُكتب على الهاتف، ثمّ تُرْسلُ منه إلى هاتفٍ آخر، أو هي أسْ أمْ أسْ (SMS)!

قالا: أُمُّ مَنْ يا بنَ الفلاح؟

قلت: أُمّ المشاكل والخِصام، فما أكثرَ ما كنتَ ترى اثنين يضعُ أحدُهما فمَهُ في أذن صاحبِه يحدّثُه عن أخبار زَيْد وعَمرو، وأسرار زَيْدَة وعَمْرَة، ويحلّلُ ويُعلّل، ويَشْمَتُ ويتشفّى!

أمّا اليوم فقد استغنى هؤلاءِ المتناجون بهذه التقنية الحديثة، فصارَ كُلٌّ منهم يضعُ فمَهُ في أذن الآخر في وقتٍ واحد، ويتناجيان عبرَ الأمواج في إيذاء

النـاس، وإرسـال الرّسـائل المفسـدة، بـدلاً مـن التواصـي بـالحقّ والصّـبر والإصلاح:

"لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَـرَ بِصَـدَقَةٍ أَوْ مَعْـرُوفٍ أَوْ إِصْـلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا".

والإنسان الرَّاقي صاحبُ اللّباقة والأدب العالي يَعُـدّ الهـاتفَ مـن أعظـم النِّعم التي لا تدومُ إلا أنْ تكونَ محفوفةً بسياجٍ من الآداب الجمّة، فلا يستخدمُ هاتفه من أجل الوَسْوسة والوَشْوشة، أو الجهر بالسُّوء، والتناجي بالشّر.

قالا: هيّا بنا، وقُلْ هذا الكلام الطيّب على مسامع المتخاصمين، عسـى أنْ يصطلحوا.

فانطلقنا نطيّب الخواطر، ونهدّئ العواطف، ثـمّ جمعنـا الفـريقين في بيـت المختار، واتفقنا بعد الأخذ والرّد على معاهدة صُلْح تضمّنت البنود التالية:

أولاً- إنهاء حالة الحرب الباردة، ووقف الحملات الإعلاميّة.

ثانياً- استعمال الهاتف في أعمال الخير، والتعاون على البرّ والتقوى، ومن ذلك:

صلة الأرحام، والتهنئة والتعزيـة، ونقـل الأخبـار السَّـارة، ونشـر العلـم والمعرفة، وتحديد مواعيد الزيارة، والاستفادة مـن خدمـة الطـوارئ والـدَّوائر العامة.

ثالثاً- مكافحة "إرهاب" الهـاتف بتجنّـب نشـر الأسـرار، أو تتبّـع عـورات الناس، أو التـدخّل في شـؤونهم الخاصـة، أو إزعـاجهم بالرّسـائل والهواتـف الليلية.

وتُوصي المعاهدة بوجوب تعليم الأولاد آداب استعمال الهاتف، مثل: البدء بالتحية، ثمّ التعريف بالنفس، ثمّ العرض المختصر، ثمّ الختم بالتحية، مع صون اللسان عن الثرثرة، والنّكتة البذيئة.

ثمّ وقّعَ الفريقان على المعاهدة، وعادَ أثيرُ القرية سيرتَهُ الأولى، لا يُعكّر صَفْوَهُ إلا ضعفُ بَثِّ الشَّبكة، وقلّةُ عروض الشّركة، وغلاءُ سعر البِطاقة، وارتفاعُ ثمن المكالمة!

(٣٨)

فَوْرة مِزَاج وأكْلَة دَجاج!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

سريتُ ذاتَ صباح إلى المدينة المجاورة بورقـةٍ ختمَهـا المختـار؛ لأسـتكملَ المعاملة، فجلستُ على دَرَج الدائرة أنتظرُ بدءَ الدّوام، حتى مضَتْ ساعة، فإذا موظّفٌ أسمر البشَرة، قصيرُ القامة، بيده سيجارة، يحدّقُ بـي، كأنّمـا يريـدُ أنْ يقلعَني، ويقلعَ الدَّرَج:

- يا صَبَاح، يا فَتَّاح.. انزلْ عن الـدَّرَج، وانتظـرْ في السّـاحة، ولا تـدخلْ عليَّ إلا بعدَ نصف ساعة!

وامتثلتُ أمره، فحاجتي عنده، ووقفتُ في السّـاحة، والموظّفـون يتوالـون، وروائحُ القهوة الحلوة تعبقُ في المكان.. وقدّرتُ نصفَ سـاعة ودخلـتُ، فـإذا هو وسْطَ مكتبٍ محاطٍ بالزُّجـاج، لـه نافـذة دائريّـة، وبيـده جريـدة، ويرشُـفُ الشاي، ويمدُّ صوته بالرَّشْف، قال:

- مَنْ أدخلَك عليَّ بلا استئذان؟

قلت: أنتَ حدّدتَ لي نصف ساعة، فجئتُ على قَدَرٍ من السّاحة!

قال (بنبرة حادّة): هاتِ الورقة.. ومـددتُ الورقـة، فخطفَهـا مـن يـدي، وجعلَ يطيلُ النظرَ فيها، وطلبَ بطاقتي الشّخصية، فأبرزتُهـا، فرفضَـها؛ لأنّهـا مقصوصةُ الطَّرف!

قلت: لا جريرةَ لي في قَصِّـها، شـاركتُ في الانتخابـات، فأعْمَلَـتْ لجـانُ الانتخاب مِقصّاتها في بطاقات الناس بأمر الحكومة!

قال: يا أهْبَل، تتهم الحكومـة بتمزيـق وثـائق المـواطنين، وأنـتَ في دائـرة حكومية، اطلعْ بَرَّه!

فالتقطتُ البطاقة التي رماها في وجهـي، وطلعـتُ، ورجعـتُ إلى السَّـاحة التي نَفاني إليها أولَ مرّة، وضاقَتْ عليَّ دوائرُ الحكومة بما رَحُبتْ من موظّفين وموظّفات، وقلتُ أناجي النفس: اصبرْ يا بنَ الفلاح، فعسى أنْ يصفوَ مزاجُه، وتهدأَ أعصابُه وأوداجُه!

وأُلْقِيَتْ في رُوعي آيةٌ كريمة: "وَلاَ يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَـى أَلاَّ تَعْـدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى"، آيـةٌ تنهـى عـن إعمـال المِـزاج في مصـالح النـاس، وتنهى عن تَرْك العَدْل بسبب البغض والخلاف؛ لأنَّ العدل قيمةٌ خُلقيّة عالية، لا ينبغي أن يُميلَ ميزانَهُ الودُّ أو البغضُ أو المِزاجُ، أو يؤثّر في نصاعتِه ميـلٌ إلى قرابة أو نَسب.

وإذا صارَ المزاجُ هو الميـزان الـذي يـوزنُ بـه النـاس، فحـدِّثْ ولا حَـرَج ساعتئذ عن تعطيل مصـالح، وتسـهيل مصـالح، وعـن تطبيـق القـانون علـى أُناس، وتطويع القانون لخدمة أُناس، حدِّثْ عن الواسطة والشّللية، حدِّثْ عن حرمان الأكفياء من حقوقهم؛ ذلك لأنّ المزاجَ الشخصيّ سدٌّ يحـولُ بـين المـرء وبين خدمة بلده، وأداءِ رسالته، فلا حَظَّ لِمَنْ لا عباءةَ لـه، ولا حَـظّ لِمَـنْ لا ظهرَ له، ولو حملَ أعلى شهادة، وحازَ أرقى خبرة، ولو كان "أبو زيد" خاله!

وبينا أنا أناجي النفس، وقد كَوَتْ وجهي الشّمس، إذا صوت:

- تعالَ يا حاجّ!

فَتَبِعْتُ الصوت فإذا هو المراسل، وقد أشفقَ عليّ، قال:

- اسمعْ، الموظف فلان الذي طردَك يحبّ الشّعر، ولا يصفو مزاجُه إلا بسماعِه، وعندي بيت واحد ردِّده ورائي.. وجعلَ يحفّظني البيت على كسرِ وَزْن، وخطأ ضَبْط، فردّدتُ وراءَه، فلما اطمأنَ إلى حفظي قال: انطلقْ بنا، وسترى.

ومشى أمامي، ودخلنا عليه، فقال المراسل:

يا سيّدي، هذا الحاجّ شاعر كبير جدّاً، أكبر من فريد شوقي (يقصد أحمد شوقي)، ولا تنظرْ إلى منديلِه وعقالِه وثوبه، أو جسمه النَّحيف!

قال الموظف (وقد نهضَ عن الكرسيّ): يا سلام، بيننا شاعر نحيف، ونحن لا ندري:

تَرى الرَجُلَ النَحيفَ فَتَزدَريهِ   وَفي أَثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ!

فقلتُ من القصيدة نفسِها:

وَيُعجِبُكَ الطَّريرُ فَتَبتَليهِ   فَيُخلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَريرُ

فَما عِظَمُ الرِّجالِ لَهُم بِفَخرٍ   وَلَكِن فَخرُهُم كَرَمٌ وَخَيرُ

لَقَد عَظُمَ البَعيرُ بِغَيرِ لُبٍّ   فَلَم يَستَغنِ بِالعِظَمِ البَعيرُ

يُصَرِّفُهُ الصَبِيُّ بِكُلِّ وَجهٍ   وَيَحبِسُهُ عَلى الخَسفِ الجَريرُ!

فصفّق بيديه: الله أكبر، ما هذا يا حاجّ، هـاتِ المعاملـة، فوقّعهـا، وأقسـمَ بالله العظيم إلا أنْ أفطرَ معهم على "مُسَخَّن دَجاج"، فأفطرتُ معهم، وهو يحفُّني ويزفُّني، ويقولُ لزملائه:

- هذا أعظم شاعر مَرَّ عليّ من عشر سنين!

والمراسل يدورُ حولنا: ألم أقلْ لك يا سيّدي، إنّه أشعر من "فريد شوقي"!

(٣٩)

المهندسة عَفاف وآفة الجَفاف!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أصابَتْ سِهامُ التقنية فؤادَ القرية، وملأتْ أحشاءَها بالأجهزة، فلا تجدُ بيتاً إلا وفيه مِذْياع، أو هاتف، أو تِلْفاز، حتى ضربَتْ الأسلاكُ على القرية نَسْجَها، وأورثَتْ بعضَ أهلها الكَلال والمَلال، وحملَتْ إليَّ مهندسَي الزِّراعة "رَشاداً" وزوجَهُ "عَفاف"، فاحتفيتُ بهما، وقلت:

– غَرِّدي أيتها الأطيار وزَغْردي، فالحكومة في حَقْلي، وإنَّ المهندسين إذا دخلوا حَقْلاً أصلحوه، وكذلك يفعلون!

قال: ما جئنا لنصلحَ حَقْلك، فهو يانعٌ الأُكُل، وإنّما سمعناك تغرّدُ في مؤتمر الفلاحة، فجئنا لنستدفئَ بقلبِك، ونطربَ لتغريدِك!

قلت: عجباً، تستدفئان بقلبي! أثمّة بردٌ قارس، أو انخفاضٌ طرأ على درجة الحرارة؟

قال: بل طرأ انخفاضٌ على عاطفتي؛ فأنا أشعرُ بجفافٍ وجَفاء، كأنّما أصبحَ قلبي حَجَراً من يابسِ الصَّخْر جَلْمَداً، فلا رقّةَ أعاملُ بها مَنْ له حقٌّ عليّ، ولا دموعَ تُسْفحُ على خَدَّيّ، ولا ندمَ على تفريطي في جنبِ الله العَليّ!

قالت: وأنا أشعرُ بما يشعر، غير أنَّ لساني يُحْبَسُ ويضطرب، بينما يعبّرُ "رشاد" بلسان الأدب!

قلت: سبحانَ الله واهـبِ الخِصْـب، جفَّـت النفـوس، فهـي كـالحجرات المسكونة بالوحشة والظلمة، وعلى أبوابها علمٌ مُرْفرفٌ علـى "دائـرة المصـلحة" كُتِبَ عليه: "صاحبك جَيْبك"!

وقد رُفع هذا العلم البائس لمّا ركـنَ النـاس إلى الأجهـزة، وتركـوا القلـم والفـأس والفِرْجـار، ويوشـكُ أنْ يتّخـذوا الحيوانـاتِ أحبّـةً لهـم يُـدلّلونها، ويؤثرونها على أطفالهم، ويقيمون الجمعياتِ لحمايتها كما فعـلَ أهـلُ الغـرب المصابون بالجَفاف العاطفيّ، والخَواء الرّوحيّ!

ويوم يبلغُ الجَفافُ مداه ترى العجَب، يـومَ يجـري وراءَك قِـرْدٌ أو كَلْـب، وتكون لغةُ التخاطب على الهاتف: "عَوْ عَوْ"، بدلاً مـن "مرحبـاً" العربيّـة، أو "ألـو" الإنجليزية!

ولتعلما أيها المهندسان، أنَّ سرَّ هذا الجَفاف يرجعُ إلى نكوصِنا عـن ديننـا مَنْبع الرِّي العاطفي، وقد خلّدَ الذكرُ الحكيـم مشـهدَ أولئـك البكّـائين الـذين جاءوا إلى النبيّ ﷺ فلم يجد مـا يحملُهـم عليـه، فمـا كـان مـنهم إلا أنْ: "تَوَلَّـواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ".

ولقد أعلى ديننا مَنْزلة الذين تمتلئ قلوبهم بالحبّ في الله، يقول الـنبيّ ﷺ: "قـال الله ﷻ: المتحـابّون في جَلالـي، لهـم منـابر مـن نـور، يغـبطُهم النبيّـون والشّهداء".

قال: هل يُتعلّم الحُبّ أو يُكْتسب؟

قلت: الحبُّ معنى لا يحيطُ بسرّه إلا مَنْ يعلمُ السِّر وأخفى، غير أنّه يُتعلّم ويُكتسب، وتُجْرى فيه التمارين، فالعلمُ بـالتعلّم، والحِلْـمُ بـالتحلّم، والصـبرُ بالتصبّر، والحبُّ بالتحبّب!

قال: إنْ كان عندك علمٌ بتمارينه، فأجرِ لي تمريناً واحداً، وستجدني إنْ شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً!

قلت: إذن اتّبع التعليمات، ولا تعترضْ..

وابتدأتُ بالتمرين، وهو ينفّذ: قِفْ على هذه الصّخرة، استقبلِ القِبْلة، خُذْ نَفَساً عميقاً، فرِّغْ ما في قلبك من سُوء، وتخيّلْ أنّه يسيلُ من قلبك إلى قدميك، ثمَّ احبسْ لسانَك في فمِك، وتكلّمْ من قلبِك، وردّد ورائي بأعلى صوت:

اللّهم طهِّرْ قلبي، وطهِّرْ نفسي، وطهِّرْ جوارحي.

اللّهم اجعلْ فؤادي كأفئدة الطّير براءةً ورِقّة.

اللهم اسكبْ في قلبي رِيَّ العاطفة، وجَيَشان الشّعور.

ثمّ قلت له: حسبُك، كيف تجدُ قلبَك؟

قال: مُلئَ قلبي حُبّاً لو وزِّعَ على أهل القرية لَوَسِعَهم!

قلت: فاغرفْ لي مقدار "تُنَكة"!

قال: هيهات، رِيّ حصّلتُه بعَرَق جبيني، فكيفَ أُفرّطُ فيه؟!

قالت المهندسة: وأنا والله مُلِئَ قلبي رِيّاً وَرِثْاً، وما أظنّك إلا ساحراً تتعاطى السِّحر الذي لا يفرّق بين المرءِ وزَوْجِه!

قلت: هو السِّحر الحلال الذي يكافحُ آفةَ الجَفاف، فلا يحتاجُ إلى هرمونات أو مُبيدات!

(٤٠)

دُبّ وسنة رابعة حُبّ!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

تَنفَّسْتُ الصُّعداء يومَ أتمَّ "حَنْظَل" السَّنة الرّابعة، وتخرّجَ في الجامعة، غير أنّ أنفاسي شَخَبتْ دَماً، لَمّا رأيتُه تَفزَّزَ لحماً وشَحْماً، ومَدَّ أمامَه كِرْشاً، وحلَقَ رأسَهُ على الصِّفر، وتقاصرَتْ ملابسُه، حتى بدا أسفلُ ظهره، ووضعَ في أذنيه سَمَّاعة، وراحَ يُدَندن: "أنا عندي حَنين، ما بعرف لَمِين"!

قلت: ما شاءَ الله، يا ولد، أنتَ فلتة من فلتات الزَّمان، تُلْهمُ خيالَ الشّعراء بجمالِك، وتُذيبُ قلوبَ الغانيات بوسامتِك، فأنت بلا فخر دُبّ قُطْبي من العِيَار الثَّقيل، دُبّ قُطْبي ظريف يستخدمُ التقنية الحديثة، ويغني لفيروز: "أنا عندي حَنين"!

قال: لا تَسْخرْ منّي يا حاجّ، أنا بالنسبة لزملاء الجامعة أرشقُهم جِسْماً، وأظرفُهم مَنْطِقاً، وأعذبُهم دَنْدَنةً وعَزْفاً!

قلت: أما تستحي يا ولد، تخاطبُ والدك "يا حَاجّ"؟ ألا يكفي أنّي أسمعُها من الموظّفين، فتزعج أذني، وأسمعُ من الأطباء "حَجي"، فتضحك سِنّي؛ لأنّ هذا الخطاب يتجافى عن الذَّوق، ففي أدب الإسلام يقال: يا أخي، وأهل الجاهليّة كانوا يقولون: يا أخا العرَب!

قال: يا أخا العَرب، أنوي أن أُخفّفَ وَزْني، وأعمل "رُجِيْماً"، فهل لديك مالٌ يكفي للإنفاق على هذا المشروع الذي يصبّ في مصلحة العائلة؟

قلت: ما أبقيتُ في جَرّتي من عَسَلٍ إلا صببتُه لك، وما ادّخرتُ في وِسَادتي من مالٍ إلا أنفقتُه عليك، وأنتَ تصبّ ذلك كُلَّه في مطعم الجامعة، وتنفقُه على "الشّوكولاته"، حتى غدَتْ حياتُك: أكلاً ومَرْعى وقلّة صنعة، وصرتَ إلى ما أرى، فلا سبيلَ إلى "الرُّجِيم" بعد اليوم!

قال: إذن ينفجر جِسْمي، وتتطاير أشلائي، وتخسر ولدَك المحبوب حَنْظَلاً، فتندم الدّهرَ كُلَّه، ويخسر المحبّون واحداً من أقطاب الوَلَه والشّوق في العالم، فتطالبك جماعاتُ حقوق الإنسان بدفع تعويض باهظ جدّاً عن إنسانٍ تفانى أربعَ سنين في خدمة الحُبّ والمحبّين!

قلت: فعلاً، تفانيتَ في خدمة "البلوتوث"، وخدمة الرَّسائل السّريعة، حتى غدوتَ شاهداً على تدني المستوى العلميّ في بلاد العرب، على الرّغم من كثرة جامعاتهم، ومبالغة إعلامِهم في تضخيم إنجازاتهم، فإنّ بلادَهم تُعدّ متخلّفةً بالنسبة للدول المتقدّمة بمسافة لا تقلّ عن مائتي سنة!

قال: تخلّفَ العرَب؛ لأنهم لم يمشوا إلى الحُبّ والهوى، كما مشى إليه المطرب "عبد الحليم"، وأوقفَ عليه عُمرَه، وأعلنَ في العالمين: "وسنين وأنا ماشي.. ماشي"!

قلت: بل تخلّفَ العرب يا فَصيح؛ لأنّهم أهملوا المَلَكة العلميّة، وجعلوا غايةَ العِلْم الحصولَ على شهادةٍ عُليا، تُعلّقُ على الجدار، ويُفاخرُ بها الصّديقُ والجار، وتجلبُ اللّقبَ الرَّنان!

ولم تغنِ عنهم جيوشُ مُعلّميم، ولا حشودُ مُتعلّميهم؛ إذ لم يصنعوا حياتَهم على عينِ المعرفة والتقنية، فلا يكاد يبلغُ معهم العِلْمُ السَّعيَ حتى يضحّوا به قُرْباناً لذاتِهم، وكَبْشاً للذّاتِهم!

قال: ألا يكفي أنّ العربَ قدّموا إلى العالم صوت "أمّ كلثوم"، وأهدوا إلى موسوعة "جينس" أطولَ مائدةٍ، وأكبرَ مَنْسَف، وأضخمَ دلّة قهوة، ألا يكفي؟ إلامَ تظلّ على رَجْعيتِك، وكُتبِك الصَّفراء، وتَغْمِطُ الناسَ حقّهم؟

فأثارني وهيّجَ أعصابي فقلت:

– يكفي وزيادة، يا دُبّ بن دُبّ، يا أخا "مايكل جاكسون" صاحب "البُوب"، يا جَرْوَ نون النّسوة، وتاء التأنيث، وياء المخاطبة!

على كُلّ حال، أنا عندي حَنين، ولكنْ أعرف لِمَنْ يكون، تعالَ معي.

ومدّ يده فلم أستطعْ أنْ أرفعه، فاتصلتُ بالدّفاع المدني، وقلت: إليَّ إليَّ، ولا تُبْطِئوا!

فجاءتْ سيارتُهم تُصوِّتُ وتَعْوي، قالوا: ما الأمر؟

قلت: دُبّ قُطْبي وقعَ في حُفْرة، وأخشى إنْ لم أُنقذه أنْ تُوقعني جمعيةُ الرِّفق بالحيوان في وَرْطة!

قالوا: ليس في البلد دِبَبَة، ولسنا في الأسكيمو، أو في الأسكا!

فأشرتُ إليه: هو ذا، اسحبوه إلى الحَقْل، وشَغِّلوا الإطفائيّة!

فلمّا رأوه ضحكوا حتى استلقى بعضُهم على ظهرِه، ثمّ جرّوه إلى الحقل، فوضعتُ يدَهُ في يدِ المحراث، وقلت: أقسمُ بالله العظيم، لتحرُثُنَّ ثلاثين يوماً، لا تأكل في اليوم إلا وجبةً واحدة!

فشرعَ يحرث، وعرقُه يتصبّب، وشحمُهُ يتساقط، حتى أتمّ الأجلَ، وتحوّلَ من دُبّ ثقيل إلى حَمَلٍ وَديع!

فقلت له: نعيماً، "حَجيّ" حَنْظَل!

قال: أنعمَ الله عليك يا أبي، وَدِدْتُ لو أنّك تفتح جامعة للحراثة، فـأكون أستاذاً فيها!

قلت: ذلك شَرفٌ لا تَسْتحقُّهُ إلا عُجولُ البلد!

(٤١)

قَبْر المرحوم الدّكتور المظلوم!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

لّما نجحَ ابني "هبوب الرّيح" في الثانوية العامة، ورُفِعَت الأعلام، وصدَحَت الأهازيج، قلتُ له: أَسْرِجْ لِيَ الحصان؛ فإنّي أرى ألاّ أدخلك الجامعة، وأرى أنَّ نذهبَ إلى الشَّركة القريبة عسى أنْ تجدَ لك فيها وظيفة.

فركبنا حتى إذا وصلنا البوابة قالوا: ليس لديه شهادة مِهْنة، ولا ينفعُنا بشيء.

قلت: ولا يصلح كاتبَ دوام، أو حاملَ عيّنة، أو حارسَ بوابة، أو عاملَ نظافة؟

قالوا: لا يصلح!

قلت: لعلّه يصلح في المدينة، وانطلقنا إليها نراجعُ دوائرَها ومؤسساتِها فيقال لنا: لا شاغر، ولا عمَل، ولا تعيين، ولا توظيف، ولا انتداب، ولا مياومة، فاقطعوا الأمل!

فلم نقطع الأمل، حتى خطَرتْ لي فكرة، فقلتُ يوماً لهبوب الرّيح: وجدتُها، وجدتُها!

قال: ماذا وجدتَ؟ قلت: اسكت، وهاتِ يدَك.

وأخذتُ يدَهُ، ودخلنا على القائمين على جامعة التقنية فقلت: إنَّ هذا ابني معدلُهُ تِسعٌ وسبعون، فسجّلوه مع عمّال الزّراعة، وأنا أبوه ابن الفلاح

النَّشْمي، علّمته فنّ الحراثة، وتهيئة التربـة، والتَّسـميد، والتّقلـيم، والتّعشـيب، والتَّعْزيق.

قالوا: ماذا يحمل؟

قلت: يحمل الثانوية العامة، ويحمل همّ أسرة مُكوّنة من اثني عشر فرداً.

قالوا: لو كان دكتـوراً لوجـدَ لـه مـوطئ قَـدَم، ولَوَضـعناه علـى الـرّأس والعين، وحملناه على الكَفّين!

قلت: طيّب، دعونا من "هبوب الرّيح"، أعرفُ دكتوراً في القرية عاطلاً مـن العمل، أعرفُه كما أعرفُ نفسي، عالم بارع، وأديـب أريـب، شـهاداته ممتـازة، ومهاراته فائقة، إذا تكلّمَ أطرَب، وإذا كتَب سـحَرَ وجَـذب، وهـو يجـري ولا يُجْرى معه!

قالوا: فهل قَدَّمَ للجامعاتِ من قبلُ؟

قلت: حرثَ البلد، طولَهُ وعرضَهُ، شرقَهُ وغربَـهُ، وفي كـلّ مـرّة يقـالُ لـه بلسانِ الحال: آسف، لا خيلَ عندَك ولا مناسِف!

فيرجع خائباً مغموماً، ويـداري قلبَـهُ حتـى لا يقسـو، ويقـولُ لـه: اصـبرْ واحتسِبْ، فهم أهلي، وأهلي وإنْ ضَنُّوا عليَّ كِرامُ!

قالوا: وهُوَ من البلد، وأكلَ فيها العيش والمِلْح، ولبسَ "الشّماخ" الأحمر؟

قلت: إي والله، البلد مَسْقِطُ رأسِـه، ومَسْـقِطُ هـواه، ومَسْـقِطُ رأسِ أبيـه وأمّه قبل الحرب العالمية الأولى، وقد شربَ من ماء راحوب، ولَحْظَـة، وعـين سَارة، وأكلَ خبزَ "الطَّابونَ" في الأزرق، والطُّرة، وضَانا، وهو أردنيّ عشرة على عشرة!

قالوا: انظرْ كيفَ قلت؟

قلت: ما قلتُ إلا الحقّ، وأنا لا أُفرِّقُ بين الخَلْق، وابنُ البلد أولى بجامعاتها من أهل الهند والسِّند:

أحرامٌ على بلابلِه الدّوحُ حَلالٌ للطِّير من كُلِّ جِنْسٍ؟!

وإذا كان الرّجل لا واسطةَ له ولا عَباءة، أفيظلّ رهينَ المحبسين، في بيتٍ مُظلم، ومجتمعٍ ظالم؟

قالوا: نعوذ بالله، الظُّلم خطّ أحمر، والشّفافية خطّ أبيض!

قلت: إنّ ثقتَهُ تزعزعتْ بالشّفافية، فهو لا يؤمنُ بأقوالِ الصُّحف، ولا بنشرة أخبار الثامنة!

قالوا: لا إكراهَ في الصّحافة، فمَنْ شاءَ فليؤمن، ومَنْ شاء فليضربْ رأسَهُ بالحيط أو يُبلِّط البَحْر!

قلت: وخلاصة الكلام بالنسبة لهذا الدّكتور الهُمَام؟

قالوا: يصبر حتى يُنْشر في الجريد إعلان، رُبَّما بعدَ يوم، ورُبَّما بعدَ عام!

قلت: لقد صبرَ عشرة أعوام، ألا تكفي أيها السّادة الكرام؟ أليس للصبرِ حدود؟

قالوا: ليس للصبر حدود، ولو قضى نَحْبَهُ وهو صابر، فلن يُنْسَى، ولسوف يُكرّمُ بأمسية شعريّة، وحفلة غنائيّة، ويُطْلق اسمه على شارع في القرية، ويُكْتب على قبرِه بالخطّ الكوفيّ:

"هذا قَبْر الدّكتور الأديب العالم ابن القرية، وُلِدَ في بلدِه، وماتَ في بلدِه"!

ألا يكفي أنْ يُولدَ ويموتَ في بلدِه؟

وامتلأ قلبي غيظاً فقلتُ (مُحتدّاً مُودِّعاً): صدقَ "جـبران خليـل" إذ يقـول: "الأديب في الشّرق يموتُ حيّاً، ويحيا ميّتاً". يا قوم، قبّحَ الله الواسطة التي حَرمَتِ البلدَ من العقولِ المبدعة، والكفاءات العالية، وقبّح الله كواليسَها السَّوداء الـتي تُوسِّدُ الأمرَ إلى غير أهله، فَتَحْرِم، وتُعيّن، وتَفْصِل، وتُرفِّع!

وأمّا أنتم فمباركٌ عليكم جامعاتكم، ورواتـبكم، وبـدلاتكم، ونظّـارتكم، وسـاعاتكم، وسـاعاتكم الإضـافيّة، وتفـرّغكم العلمـيّ، وتـذكّروا أنّ أيـدي المظلومين ترتفعُ في عتمة الليل تدعو على الظالمين،

وموعدنا وإيّاكم يوم الدِّين، يومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يديه!

(٤٢)

السَّاق على السَّاق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

ألجأتْني ضائقة "الدكتور المظلوم" إلى أن أتشفّع له، وأخرج من وادي الكَـرْم إلى جرَش؛ لأقابلَ مسؤولاً مرموقاً فيها، فاستعنتُ قبلَ الترحّل بالهاتف النقّال، وأخذتُ من سكرتيرة المسـؤول موعـداً مُوثّقـاً، وجعلتُـهُ بيننـا ميثاقـاً غليظـاً، فأمَّنْتُ وأمَّنَتْ، ودَمْعَزْتُ ودَمْعَزَتْ!

أتدرون ما معنى: أمّنتُ وأمّنَتْ، ودَمْعَـزْتُ ودَمْعَـزَتْ؟ أي قلـتُ: آمـين، وأدامَ اللهُ عزّكِ!

ثمّ استعنتُ مرّة أخـرى بالهـاتف؛ لأحجـزَ لـي مَقْعـداً في بـاص القريـة، فاتصلتُ بالسّائق، وكنتُ من أهل الحظّ؛ إذ فتحَ الخطّ، وأنبـأني أنَّ الانطـلاق السّاعة الثالثة قبلَ صياحِ الدِّيكة، وأنَّ عليّ أنْ أكونَ على الطريق العام قبلَ أنْ يتبيّنَ الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود، وإلا فلا!

فدَمْعَزْتُ ولم يُدَمْعز، ولكنني انصرفتُ عن الهاتف راضياً بالموعد والوعيد!

ثمّ لمّا رحلَ النهار، طفقتُ أوصّي أمَّ البنين والبنات بإيقاظي – إنْ نمتُ – الساعةَ الثانية، وبِتُّ ليلتي أُمنّي الـنفس بلقـاء المسـؤول، فهـو أسـتاذ "الـدّكتور المظلوم" قبلَ ربع قرن، ولعلّه إنْ رآني، وسمعَ مقالتي أنْ يرقَّ لي، فأجـد عنـده ما لم يجد "الدكتور المظلوم" منذ عشر سنين، وجذبتُ الوسادة، ونمتُ على عَـزْف منفرد للمُنْتَظَر من السَّعادة!

فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة، فإذا أنا في الباص، وإذا الباص مزدحمٌ بالناس، وهو ينهبُ الطريقَ الصَّحراويَّ نَهْباً، حتّى حطَّ بنا في "مجمّع الجنوب" بعَمَّان، بعد ثلاث ساعات من مغالبة الشاحنات، وزلزلة "المَطبَّات"!

ثمّ نزلتُ وتفقدّتُ يديَّ ورِجْليَّ وكَتِفيَّ، وأصلحتُ ثيابي، ونفضتُ عنها غبار الطريق، ودُخان الرّفيق، وركبتُ إلى "مجمّع رغدان"، وقلتُ لنفسي، والسيارةُ تجتاز الإشارة فالإشارة: احمدْ ربَّك يا بنَ الفلاح، على أنَّ أعضاءَك كلَّها ما تزالُ ملتصقةً بجسدك، على حين مُزّقت أعضاء، وتناثرتْ أشلاء، وسالتْ دماء على خطّ الصّحراء، فحمدلتُ وسبحلت!

ثمّ نزلتُ في رغدان، ونظرتُ في الوجوه، واخترتُ وجهاً فسألته عن باصات جَرَش، فقال دون أنْ يهشّ لي أو يبشّ: تركب إلى المجمّع الشمالي، ثمّ تسأل.

فقلت: قطعَتْ جَهيزةُ قولَ كلّ خطيب، وأدخلتُ لساني في حَلْقي، وأوحيتُ إليه: لا تَنْبِسْ ببنت شَفَة، فالناس هنا لا يتكلّمون إلا بقدرٍ موزون، ولا دخلَ لك، فالمدينة مدينتهم، والحافلات حافلاتهم، والمطاعم مطاعمهم، وليس لك فيها – على اتساعها- شبرٌ مربّع، ولا مَفْحص قَطاة!

وركبتُ ولزمتُ الصَّمت، حتى ألقتْ بي الحافلة إلى المجمّع الشّمالي فسألت فقالوا: هذا باص جَرَش، فركبتُهُ، وقد رَكِبَنِي الفرح، وقلتُ للسائق: أنا ابنُ الفلاح، نَشْميّ، وتضعني على يمينك، ولكنْ لا علمَ لي بمكان "دار العِلْم"، فهزّ رأسه، وقال كلمةً واحدة: أبشرْ.

ووقعتْ كلمتُه موقعاً حسناً في نفسي، وقلت: لعلّ هذه الكلمة من عاجل بشرى ابن الفلاح، فهي أوّل، وبشرى المسؤول المحلّ الثاني، أو هي بشرى كبرى للدكتور المظلوم!

ونظرتُ من النافذة، فرأيتُ "الفيلات" الفخمة، والحدائق الزاهية، والمحالّ الأنيقة، ورجعتُ بخاطري إلى وادي الكَرْم الشّاحب، وقارنتُ بين الثرى والثريا، وعددتُ على أصابعي: أولاً، ثانياً، ثالثاً، ولمّا أردتُ أن أقول: عاشراً قال السَّائق: تفضّل، انزلْ.

فَنَزلتُ فإذا بوابةُ دار العِلْم، ثمّ أخذتُ أصعدُ إلى رئاستها كأنّما أصعّدُ إلى قمة "إفرست"، حتى إذا وصلتُ إلى مكتب السّكرتيرة لاهثاً مُتْعباً، وقد أشارتْ عقاربُ الساعة إلى الثانية عشرة ظهراً، انزلقَت الكلمات من لساني:

- أنا ابن الفلاح النشميّ، لي موعدٌ مضروب مع حضرة المسؤول.

قالت: ولكنّ عطوفة المسؤول غير موجود!

قلت: فأين هو؟ إنّ لي معه موعداً قلتِ أنتِ: إنني لنْ أُخْلَفَه.

قالت: عفواً، إنّه مسافرٌ خارج الوطن في مهمّة رسمية.

قلت: مسافر خارج الوطن؟ وأنا المسافر إليه من داخل الوطن منذ الساعة الثالثة قبل صياح الدِّيكة؟ على كُلّ حال شكراً!

قالت، (وقد وضَعَتْ رِجْلاً على رِجْل، وساقاً على ساق، والُمكيّفُ يرسلُ نسائمَهُ العليلة، والمصابيحُ تنشر ضياءها الوهّاج): بِدّك هَلاّ ترجع على الأَرْية (القرية)؟!

قلت: فإلى أين المفرّ إذن؟!

ورجعتُ من جَرَش بلا مَنْسَف ولا حمص، لا ألوي على شيء للدكتور المظلوم، ولا حتّى على خُفّي حُنين!

(٤٣)

الدَّوْر تحضُّر بعيدُ الغَوْر!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

أَلَّمَ بي مَغصٌ حادّ مزّقَ أمعائي، ومـرَّغ في وَحْـل الكآبـة آمـالي، وضـيّقَ "كاميرا" دُنياي، فانبعثتُ إلى طبيب العيادة، لا أدري مشياً على الوجه، أم سَـعْياً على الرَّأس، فقال:

- ما بِك يا حَجّي؟

قلت: عَليل، مَغصٌ شديد، وصبرٌ قليل!

فمدّدني على السّرير، وجسَّ نبضي، وأمرَ لي بالمُغَذّي، فأحسستُ بالرّاحة والهدوء، واتّسعَتْ عدسةُ كاميرتي، فرأيتُ الطبيب بقميصِه الأبيض، وسمّاعته المدلاّة، ووجهه البشوش.

فقلت: أشكرُك جزيلاً على ثلاث نُسَخ: نسخة لطبِّـك، ونسـخة لقلبِـك، ونسخة لتواضعِك!

قال: هو واجبي أقومُ به، وأتقاضى منه أَجْري، وأسعى عليه وأَجْري!

قلت: الناسُ يحبونك، ويَعْجبون منك، وآيةُ عَجبِهم أنـك لا تَعُـدُّ نفسَـك طبيباً إلا في العيادة، أمَّا في غيرهـا فتعـدُّ نفسَـك إنسـاناً عاديـاً، تركـبُ معهـم الباص كما يركبون، وتقفُ معهم عندَ الفرن كما يقفون، وتشتري من السُّـوق كما يشترون!

قال: أنا يا "حَجّي"، درستُ في الغرب، وتعلّمتُ منهم ممارسة "الدَّوْر" الاجتماعيّ، فإذا كان أحدُهم طبيباً مثلاً، فهو عندهم طبيبٌ في عيادتِه ومستشفاه فقط.

أمّا في الدُّكان والمتجر فهو مُشترٍ.

وأمّا في الباص والحافلة فهو راكب.

وأمّا في سيارته فهو سائق.

وأمّا عندَ الشاطئ والبحر فهو سائح.

وهكذا، وهو في ذلك كلّه لا يُدْخلُ شهادتَهُ ولقبَهُ ومَنْصِبَهُ في كلّ موقف!

ومِثْلُ الطبيب عندهم مُعلّم المدرسة، وأستاذ الجامعة، ومدير الدائرة، وعمدة المدينة، وحاكم الولاية، ورئيس الدّولة، وهم جميعاً يتداولون الأدوارَ بينهم، ولا يستعملون ألقابهم، أو الصّلاحيّاتِ المخوّلة لهم إلا في أماكن عملهم فقط!

أمّا في بلاد العرب فإنّك تجدُ أصحابَ المناصب والمكاسب يحملون معهم ألقابَهم، ومُسمّى وظائفِهم حيثما حَلُّوا وارتحلوا، ويريدون أن تُؤدَّى لهم التحية في كلّ مكان، وتُقْضى حوائجهم، وتُنجز معاملاتهم في سرعة البرق!

فما أكثرَ ما تَسْمعُ مَنْ يُعرِّف بنفسه أمامَ الناس: أنا الدكتور فلان، أنا المهندس فلان، أنا الطبيب فلان، أنا الطيّار فلان، أنا القاضي فلان، أنا المدير فلان، أنا المتصرّف فلان، أنا رجل الأعمال فلان!

فالدكتور منهم يحملُ شهادتَهُ بين يديه، أو قُلْ يتأبّط دكتوراه في كلّ مَنْزل ومحفل، فهو في الباص دكتور يجب أنْ يُعْرف، وتُخفضَ له الأصوات، وهو في السُّوق دكتور يجبُ أنْ يأخذَ أحسنَ الأصناف، و تُحْمَلَ عنه أغراضه، وهو في

البنك دكتور، وهو في سيارته دكتـور، وهـو في العُـرس دكتـور، وهـو في بيتِـه دكتور، وحتى عند القبور هو دكتور!

قلت: ما تسمّيه "الدّور" أيّها الطبيب، هو عندنا في ديننا، وقد وردَ في الـذكر الحكيم أنّ المشركين كانوا يتعجّبون من النبيّ محمّد ﷺ كيف يقوم بعـدّة أدوار، يبلّغُ رسالة ربّه، ويأكل الطعام، وينام على الفراش، ويمشي في الأسواق!

والحقّ أنّه رسول، ورئيس دولة، وزوج، وأب، وجنديّ، وبـائع، ومُشْـتر: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا".

وعربُ الجاهلية كانوا لا يؤمنون بتعدّد الأدوار بل يؤمنون بالنَّمط الواحد والدَّور الواحد، فالتاجر تاجر، والشَّـاعر شـاعر، والـزَّعيم زعـيم، لا يصـلحُ أحدُهم لدورٍ غيرِ دَوْرِه!

أمَّا الصَّحابة الكرام فكـانوا يؤمنـون بالـدَّوْر، فـأبو بكـر الصـدّيق كـان خليفة، وكان تاجراً، وكان يحلبُ الشّـاء للفقـراء، وخالـد بـن الوليـد كـان في معركة مؤتة جندياً ثمّ قائداً، وفي اليرموك كان قائداً ثمّ جنـدياً، وعبـد الـرحمن بن عوف كان في السُّوق تاجراً، وفي الحرب كان فارساً!

قال: يا سلام، يا "حجّي"، أخـذَ الغـربُ قِيَمَنـا فعمـلَ بهـا، ونبـذناها نحـن وراءَنا ظِهْريّاً، فأحـدثنا خَلـلاً كـبيراً في نظامِنـا الاجتمـاعيّ، وعطّلنـا العمـلَ المؤسسيّ في نظامِنا الإداريّ!

قلت: إنّ دينَنا يوجبُ علينا أن نؤمنَ بالدَّوْر الاجتماعيّ مهما حصّلنا مـن زينةٍ جماليّة، أو معارف علميّة، أو مكاسب ماليّة، وإلا بقيَ المغصُّ الحادّ يمـزّق أمعاءنا، وبقينا على وضعنا المُزْري!

(٤٤)

خَبَر عاجِل وخَطَر نازِل!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

شَقَّتْ سمعي خُطى أقدام مُتلاحقة، وأصواتُ أنفاس لاهثة، وخَفْقُ أثواب، فأرهفتُ السّمع، فإذا صوتٌ من أعلى الحَقْل: أبشرْ يا بنَ الفلاح، وحَضِّر البِشَارة!

فاهتزّ قلبي، فعَمَدْتُ إلى صُندوق فملأتُه عنباً وفاكهة، وقلت:

- خير، يا طير!

قال: هذي برقية عاجلة لك!

قلت: وهذا صندوقُ عِنْب عاجل لمعدتِك!

فقرأتُ البرقية، فعلمتُ أنّ منتدى الفلاحين قد اختارني؛ لأمثِّلَهُ في مؤتمر "إنقاذ الرَّغيف العَرَبيّ" الذي سيعقدُ في "ولاية الجزيرة" بالسُّودان، فانسكبَ الفرحُ في أضلعي، وأعلنتُ حالةَ الطوارئ في الدّار، فأمرتُ بإعداد ملابسي ومتاعي، وودّعتُ أهل القرية، وانطلقتُ إلى المطار.

وهناك رأيتُ العجبَ العجاب: طائرة ذات نوافذ صغيرة وأبواب، ومقاعد وثيرة ورُكّاب، وشاشات معلّقة وطعام وشراب، فكأني في أحلام عِذاب، فما استيقظتُ إلا في مطار "واد مدني"!

نزلتُ في مدينة "واد مدني" عاصمة ولاية الجزيرة التي تبعدُ عن الخرطوم نحو (١٨٠)كم، فأدهشتني مبانيها الحديثة، وفنادقها الجميلة، وشوارعها المعبّدة

المزيّنة، وتلقّاني أهلُها بالتحية السُّودانية: "حبَا بكم عَشر" أي مرحباً بكم عشر مرات دفعة واحدة!

ثمّ قيل للمؤتمرين هل أنتم مجتمعون، فكان الاجتماعُ في وسْطِ الحقول، وقد أحاط بنا شرابُ الكركديه والعَرَديب، وحفّتْنا فاكهةُ المانجو والجوافة، وتناثرَ بين أيدينا الفولُ السُّوداني "الفستق"، وقيل لنا:

- هذه هي منطقة الجزيرة، أراضٍ زراعية مدّ البصر، وما بعد البصر، يحيط بها نهران عَذْبان مُتدفّقان: النيل الأبيض والنيل الأزرق، ويُزرع فيها الأرز والقمح والقطن وسائر الخضروات والبقول، وهي بخصبها واتساعها ووفرة مائها سلّة للغذاء العربيّ من عدن إلى طنجة، وهي الحلّ الأمثل لإنقاذ الرّغيف العربيّ، والكرة في مرمى فلاحي العرب، وصنّاع قرارهم!

وتحدّث المتحدّثون، ثمّ قدّمتُ ورقة جعلتُ عنوانها: "الرّغيف: محراب أمنه، وحَرَم أمته" وابتدأت قائلاً:

- أيّها السّادة الكرام، ما من فلاحٍ أو عامل يموجُ قلبُهُ بحبّ أمته إلا يستشعر الخطر النازل خطر انهيار الرّغيف العربيّ، واعتماد ملايين الأفواه على قمح "أوباما" و"بوتين"، وبين أيدي العرب ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم أرضٌ تدرّ لبناً وعسلاً، وتنبعُ نِفْطاً، وتتدفّق فضّةً وذهباً، فما تحتاج هذه الأرض؟

تحتاجُ قبلَ كلّ شيء إلى إنسان قد اصطبغَ بصبغة الله التي صبغَ الناس عليها، إنسان ذي إرادة وهمّة ومهارة، لو عزمَ على قَلْع جَبل لفَعَل، ولو دعا جِرْماً من السماء لَنَزل!

إنسان يقيمُ الـوزنَ بالقِسْـط، ويسـخّر النعمـة في الحـقّ، ويجعـلُ الفِلاحـةَ أساسَ اقتصادِ البلد، ويتّخذها عبادةً وقُرْبة، فينعم بذلك في حرَمِ دينِه الآمـن، ويذكر ما قال ربّه لأهلِ مكة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّـاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

واليوم يقفُ العالم على شـفا الانهيـار بعـد فشـل الاشـتراكية، وإفـلاس الشّركات الرّأسمالية، وانفجار أخطر أزمة ماليـة، تلـك الـتي هـزّت القلـوب والأسواق والجيوب، فلم يَعُد العالم ملاذاً آمناً، فحارَ الخبراء والاقتصاديون ما يفعلون، ولا يزالون حائرين!

أيها السَّادة الكرام،

لقد استغنَتْ شعوبُ العالم عن الله الرّحمن الذي يكلؤها بالليـل والنهـار، فأصبحتْ عاريةً في كلّ شيء: عاريةً في أفكارها الإلحادية، عاريةً في اقتصـادها الرَّبـويّ المنهـار، عاريـةً في أزيائهـا الخليعـة، عاريـةً في أفلامهـا السـينمائية، وتراكضت إلى الشَّواطئ، فتراكضَتْ إليهم أمواجُ "تسونامي" العاتيـة الـتي تـدمّر كلَّ شيْ بإذن ربّها، وتراكضت الزّلازل إلى المجرمين، وتراكضَ الإيدز إلى أهـل الدَّعارة، وتراكض الطاعون، وأصبح العالم اليوم غيرَ آمـنٍ لأحـد، حتـى كـاد رغيفُهُ يحترق!

أيها السَّادة الكرام،

إنَّ دينَكم هو الملاذُ الآمنُ الوحيد للعالم، هو العاصمُ من الرّبا والاحتكـار والقمار، وإنَّ اقتصادَكم هـو المنقـذ الفعلـيّ مـن الأزمـة الضـاربة، والخسـارة الفادحة، وإنَّ أرضَكم هي سلّة الغذاء لكلّ فم جائع، ومعـدة خاويـة، وهـذه

الأرض التي نقفُ عليها هي خير شاهد، فهل من فأسٍ تضـرب، ويـد تـزرع، فدعوا الكلامَ الآن، ولنضعْ "فأسَ الأساس" لمشروع الجزيرة الأكبر، فانهضوا!

وجيء بالفؤوس والمحاريـث والأشـتال، فشـرع المـؤتمرون يزرعـون، حتـى نُودي لطعام الغداء!

ولمّا استفرغتُ ما في نفسي من لواعج الحبّ لهذه الأرض، هدأتْ ثائرتي، وفاءتْ إليّ سَكينتي، وقلت: اضربوا فكلٌّ ضربة فـأس برغيـفِ خبـز، و"وحَبَـا بكم عَشر"!

(٤٥)

السّباق على كُرسيّ الحلاّق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

لَعْلَعَ الرّصاص، ودَوَّت الزَّغاريد، واشتعلَت الدَّبْكة، فأنبَأَتْ هذه الغنائية الثلاثيّة عن خبر جِدّ سَعيد في حيّ "الميدان" لعائلة حَمْدان، وانثالَ الناس يهنّئون حمدانَ وأهله على المَنْصِب الإداريّ الرَّفيع مَنْصبِ "مدير ناحية" الذي حظيَ به دونَ أهل القرية، فأصبح اسمُه الجديد: سعادة حمدان بيك، وتلمّظَتْ به كلُّ شفتين تهويان الأسماء المقترنة بـ"بيك، وباشا، وسعادة، وعطوفة"!

ولم أكنْ فارغَ اليد لحظةَ اندلاعِ الغنائية، أو قُلْ لم أكنْ فارغَ الرّأس، إذ كنتُ بين يدي حَلاّق الحيّ، وتحتَ مِقصِّه الذي يُطَقْطِق أكثرَ مما يَحْلِق، وهو يقصُّ حصادَ القرية الإخباريّ، وفي كلّ قِصّة يُدْخلُ شَعْر فلان الطويل أو المجعّد أو المسترسل، ثمّ يقصّ عليَّ من نبأ حمدان بيك!

قلت: هنيئاً لِمَنْ حازَ المَنْصِب، وعرفَ حقّه وحَدّه، وعرفَ قَدْر نفسِه، ووقفَ عنده، فالمَنْصِب نعمة، إمّا أن تجلِبَ مِنْحَة، أو تُعْقِبَ مِحْنة.

والعاقل يا سيّد "ياسر"، إذا استقرّت الدنيا عنده من زينةِ مالٍ وبنين، أو مَنْصِبٍ هو فيه مَكين، فإنّه يَعُدّ ذلك ابتلاءً من الله تعالى، وليس كرامةً له، أو ثواباً يستحقّه، أو دليلاً على صلاحِه وحُسْن استقامتِه، ولنا في سليمانَ عليه السلام المثلُ الأعلى!

قال: شوّقتني يا شيخ، فأين موطنُ المثل في حياة سليمان عليه السلام؟

قلت: لّما نظرَ سليمانُ ورأى عرشَ "بلقيس" مُستقرّاً عنـده عـزا الفضـلَ إلى ربّه ﷻ، وشـكرَهُ علـى هـذه النّعمـة، وعـدَّها ابـتلاء، فهـو يخشـى أنْ تكـونَ استدراجاً له، أو بلاءً عليه:

"فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ".

قال: إذا استقرّت الدنيا عندَ قريبٍ لي، أو صاحبٍ، أو جار، فما أفعل؟

قلت: لا ينبغي لك أنْ تحسُدَه، أو تتمنّـى مـا عنـده، أو تقـولَ مـع الـذين يُريدون الْحياة الدّنيا: "يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِـيمٍ"، بـل اسأل اللهَ العافية في الدِّين، والبركة في الرّزق.

قال: أين هذا التوجيه اللطيف من حيـاة بعـض النـاس الـذين إذا نزلَـتْ بساحتِهم الـنِّعم، اتّخـذوها للعلـوّ والتكبّـر سُـلّماً، وجعلوهـا للفسـاد مَهْـداً وسُبلاً؟

قلت: يا سيِّد "ياسر"، العلوّ والإفساد في الأرض عملان قبيحان يتنافيان مع مكارم الأخلاق، أمَّا الكبرياء فصفةٌ مختصةٌ بـالله وحـده، لا ينبغـي أنْ ينازعَـهُ فيها مُنازع، ففي الحديث الشّـريف: "الكِبْرِيـاء ردائـي، والعظمـةُ إزاري، فمَـنْ نازعني واحداً منهما قذفتُه في النّار".

وأمّا الفسادُ فصفةٌ من صفات المجرمين، وهو مصدرُ الشّـر والهـلاك، وقـد نهى الله عنه: "وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ".

والتفاخرُ بالجاه والنفوذ عُلوّ في الأرض، والتفاخرُ بالمال عُلـوّ في الأرض، والتفاخرُ بالحَسَب والنَّسَب عُلوّ في الأرض، والتفـاخرُ بالشّـهادات والألقـاب عُلوّ في الأرض.

وتلهيةُ النّاس بالأفلام الماجنة إفسادٌ في الأرض، وتعاطي الرّشوة إفسادٌ في الأرض، وإهــلاكُ الحَــرْث والنَّسْــل إفســادٌ في الأرض، وتخريــبُ الطُّرقــات والمرافق العامة إفسادٌ في الأرض، والتعاملُ بالواسـطة لإعطـاء الحـقّ لِمَـنْ لا يستحقّه إفسادٌ في الأرض، والله تعالى يقول :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣]

قال: سبحانَ الله، ما أرخصَ الدّنيا، وما أثمنَ الآخرة!

قلت: وأرخصُ من الدّنيا الذي يظنّ أنّها ستدومُ له، فينعم في ليلِه ونهارِه بالمال والصّحة، والمنصب والجاه، والتصفيق والتبجيل، فيعلو ويُفْسِد، ويظلِمُ ويَستبدّ، ثمّ على حين غرّة يفاجئه الموت، فإذا هو يرى الدّنيا رأيَ العين: حُطاماً زائلاً، وسَراباً خادعاً، ويراها مثلَ كُرسيّ الحلّاق، يتسابقُ الناسُ إلى الوصول إليه، ثمّ يجلسون عليه، فلا يلبثُ أحدُهم أنْ يتحوّلَ عنه، ويلوذَ بالفِرار، مهما طالَ تمتّعُه بالمقعد الدَّوَّار، ودفء "السّشوار"!

قال: ضربتُ بهذا الكُرْسيّ مثلاً لتحوُّل الدّنيا عن أهلها، وقد آنَ لك أن تتحوَّلَ عن هذا الكُرسيّ؛ ليجلسَ عليه غيرُك، فتفضّلْ، نعيماً لك! وعقبال أنْ أحْلِقَكَ في الجنّة!

قلت: أرجوك، لا تتمنَّ، "ما صدّقت وأنا خالص منك في الدّنيا"!

فنعيماً لك، ونعيماً لحمدان بيك!

(٤٦)

أيّها الرّفاق وداعاً للعِناق!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

بينما كنتُ في "وادي الكَرْم" أعتني بأشجاري وغِراسي، إذ وردَ عليَّ نبأٌ صَدَّعَ رأسي، وهزَّ أطرافي وفرائصي، فألقيتُ مِسْحاتي وفأسي، وخرجتُ إلى السُّوق؛ لأتبيّن الخبر عن كَثَب.

فقيل لي: إنَّ وباءً خطيراً يجتاح العالم، وينذر بإبادة جماعية للبشر عربِهم وعجمِهم، أسودهم وأبيضهم، فكلّ الناس منه مخنوق، ولا يسلم منه مخلوق، وأنَّ هذا الوباء يقال له "أنفلونزا الخنازير".

قلت: الحمدُ لله، فأنا أسعدُ أهل الأرض، لا ناقةَ لي فيها ولا بعير، ولا بقرةَ ولا خِنْزير!

قالوا: ليس في هذا العالم الموبوء سعيدٌ بعد اليوم:

الكلُّ "مرضى" مساواةٌ محقّقةٌ تنفي الفوارقَ بين الجار والجارِ!

ليس فيه سعيد يا بن الفلاح النَّشْمي، بعدما جُنِّنَ البقر، وأُرهبَ البشر، وعمَّ الإيدز، وطمّ الجوع والجهل والفقر!

قلت: أوّاه! ومَن الذي جارَ على البشرية بهذه الأمراض الفتّاكة، وجلبَ لها الأوبئة القاتلة، وجَرَّ عليها هذه "الأنفلونزا" المفجعة؟

قالوا: ومَنْ غير أصحاب اليورو والدولار الذين يُمْسكون بزمام العالم، ويحتكرون صُنْعَ القرار.

قلت: لا عجب إذن:

إذا كان الغرابُ دليلَ قومٍ يدلّهمُ على جيفِ الكلابِ!

قالوا: دَعْ عنك الشِّعر يا بنَ الفلاح النشمي، وارجع إلى حَقْلِك وناسِك، واعتنِ بأشجارك وغِراسك، فإذا جاء أجلُك مِتّ تحت ظلال الأشجار، وخَفْق الأغصان، فالناس اليوم يتساقطون صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية، يموتون في الملاهي والمقاهي والنوادي والشواطئ.

ارجع الآن يا بن الفلاح النشمي، ولا تلتفت، ولا تُقبّل أحداً من العالمين، ولا تعانق بشراً ذا عينين ولسانٍ وشفتين، فإنَّ في فيه الموتَ الزؤام!

قلت: يا ويلتا على ما فرّطتُ في جنب أصحابي وخدودهم من قُبَلٍ وعِناق، يا ليتني كنتُ أصافحُهم، أو أسلّم باليمنى عليهم إشارةً، وأمسح باليسرى "جُوْخاً" لهم!

يا حسرتا على مائة ألف قُبْلة طبعتُها على وجوههم في أفراحهم وأتراحهم، وفي مناسباتهم يومَ كانت مناسفُهم تُغري بمزيدٍ من القُبلات، والأخذ بالأحضان!

قالوا: ألم تقرأ عن السَّامري في آي الذكر الحكيم، ذلك الذي خدعَ قوم موسى بفنّه فأخرج لهم عجلاً له خُوار، فعبدوه وطافوا حوله، فكانت عقوبته في الدنيا أن لا يمسّه أحدٌ، ولا يمسّ أحداً، وكان شعاره: لا مساس!

قلت: بلى، قرأتُ عنه، وأعرف في هذا العالم اليومَ ألفَ سامريّ وسامريّ!

قالوا: لقد أصبح العالم اليوم كلُّه سامريّاً بسبب أكابر مجرميه، يقول كلُّ واحدٍ فيه: لا مساس، لا قُبَلَ، ولا عِناق، ولا أحضانَ، ولا التصاق!

ولا سبيلَ إلى التواصل بين الناس إلا بالهاتف الخلوي، أو الدائرة التلفزيونية المغلقة، أو بكاميرا الإنترنت، وإنْ شئتَ: الإنطر نِطْ!

قلت: قاتل الله الخنازير التي فرّقتْ بيننا، وقطّعتْ من حبال الوصل أقراناً، ولحا الله أنباءَها، وسلّم الله الأصحاب والرّفاق، ولكنْ من غيرِ قُبَلٍ ولا مناسفَ ولا عِناق!

(٤٧)

اعترافات المُدير والنّداء الأخير!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

سريتُ يوماً؛ لأقلِّمَ أشجارَ الحَقْل، فما راعني إلا رجلٌ مُلثّمٌ عليه علائمُ النّعمة، يجلدُ ظهرَهُ ورجليه بسوط، ويرجمُ نُصُباً قُدّامَه بالحجارة، وهو يقول: "ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ"!

فقلت: ويحك يا رجل، ماذا تفعل؟

إنْ أقولُ إلا اعتراك بعضُ هَمٍّ مُوجع، أو ذَنْبٍ مُفزع!

قال: تيقّنْ أولاً أنّني صاحٍ، وأنّني خالٍ من أية إعاقة عقليّة، وأنّني في "وادي الكرم"، ولستُ في "مِنَى"، وأنني أعي ما أفعل، وأقصِدُ ما أرجُم!

قلت: فما ترجُم؟

قال: أرجمُ نفسي الأمّارة بالسُّوء الممثّلة في هذا النُّصُب، أرجمُها كما يُرْجمُ "إبليسُ" في جمَرات "مِنَى" أيامَ الحجّ، فهي أعدى أعدائي، وهي التي أوردتني الموارد، وهي مغناطيس الشّيطان اللّعين!

قلت: أيّ جُرْم عظيم ارتكبَتْ نفسُك حتّى تَعْدِلَها بالشّيطان وترجُمَها؟
قال: هذه النفس قطعَتْ ما أمرَ الله به أنْ يُوصل، قطعَت الرَّحِم، وتعاظمتْ ونشزَتْ، فداخلها العُجب والغرور، وبغَت الفسادَ في الأرض، وحملتني إلى الحرام، فما استيقظتُ من تخديرها إلا فجرَ اليوم لمّا قرأتُ قولَ الله تعالى:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ **[محمد:٢٢-٢٣]**

لقد حملتني على هَجْر إخوتي ومقاطعتِهم سنينَ عدداً، لا أكلّمُهم ولا يكلّمونني، وليس بيني وبينهم شيءٌ غير الكلام التافه، والظنّ الآثم، حتى ازدريتُهم وقَلَيْتُهم، على حين سارعتُ في إكرام أصحابي والصبر على أذاهم، والذَّوبان في حُبِّهم، والتقرّب إليهم!

وحملتني على هَجْر أرحامي من النساء، والتقصير في تفقّدِ أحوالهن، والاقتصار على صِلتهنّ في العام مرّةً أو مرتين، حين يكون عيد الفطر والأضحى، ثمّ لا أرجعُ إلا بعد عام، والنّبيّ ﷺ يقول: "بُلُّوا أرحامَكم ولو بالسّلام".

وحملتني على حِرْمان أرقابي وذوي رَحِمي من عطائي وصَدقتي وزكاتي، ولم أكتفِ بذلك، بل أطلقتُ فيهم لساني، أتّهمُهم باللؤم والسُّوء والحسَد، وأشيعُ عنهم كُلَّ نقيصة ومَثْلَبة!

وتذكّرتُ القبر، تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي سأدفنُ فيها، ويُهال عليَّ التراب، ليس لي فيها أنيس ولا جليس، كيف ألقى ربّي، وقد قطعتُ رَحِمي؟

وها أنذا أضربُ جسدي، وأُمثّل نفسي بهذه الأغصان، وقد ألقيتُ عليها ردائي، وطفقتُ أرجُمها، عسى أنْ تَطْهُرَ وتفيءَ إلى سُندسٍ من النَّضَارة غير ما هي فيه من الأقذار والأوحال!

قلت: هنيئاً لك، قد ظهرت أماراتُ توبتِك: ندَم حارّ، وإحساسٌ بالذنب، واعترافٌ بالخطيئة، فالرَّحِم جديرةٌ بإعلان البراءة من قطيعتها؛ إذ إنّها شَعيرةٌ

من شعائر الحياة، وقد أعلى الإسلامُ مَنْزلتها، وحضّ على الإحسانِ إليها، وحذّرَ من هَضْم حقوقِها، فقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

وقاطعُ الرَّحِم محروم من بركة الرزق، وبركة العمر، ولو ملكَ خزائن قارون، أو عاش متنعّماً سنين وسنين، يقول النبيّ ﷺ: "مَنْ أحبَّ أنْ يُبْسطَ له في رزقِه، ويُنْسَأَ له في أثرِه، فليصلْ رَحِمَهُ".

وقاطعُ الرّحم محروم من رحمة الله، وحسبُهُ شؤماً وتَعْساً أنّ الرحمة لا تتنَزّل على قوم هو فيهم، كما يقول النبيّ ﷺ: "إنَّ الرّحمة لا تتنَزّل على قومٍ فيهم قاطعُ رَحِمٍ".

وقاطعُ الرّحِم محروم من الجائزة الكبرى، ومن سلعة الله الغالية، محرومٌ من الجنة، وحسبُهُ شقاءً وحرماناً أنْ يسمعَ قول النبيّ ﷺ: "لا يدخلُ الجنّةَ قاطعُ رَحِمٍ".

وهذا نداءٌ أخير من الرَّحِم إلى قاطعِ الرَّحِم قبلَ أنْ يندم ويقول: "يا ليتني قدّمتُ لحياتي"، نداءٌ ينقلُه النبيّ ﷺ: "الرّحمُ مُعلّقةٌ بالعَرْش تقولُ: مَنْ وصلَني وصلَهُ الله، ومَنْ قطعَني قطعَهُ الله".

فما أتممتُ كلامي حتى اضطربَ الرّجل، وأخذ يئنّ ويشهق، ويتلوّى ويتقطّع، وتغيّرَ لونُه، فأحسستُ أنّه مهلكٌ نفسَهُ لا محالة، فقرأتُ عليه:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر:٥٣]

فما سمعَ الآية حتى نزلتْ عليه بَرْداً وسـلاماً، فسـكنتْ نفسُـه، وهـدأت حركتُهُ.

ثمّ فكَّ لثامَهُ وقال: أنا "حَمْدان بك" مدير الناحية:

أعاهدُ الله تعالى على أنْ أنشئَ مؤسسةً خيريّة لصلة الـرَّحِم، تُصْـلحُ ذاتَ البين بين ذوي رَحِمي، وتُعيلُ محتاجيهم، وتوصِّلُ حِبالَ ودِّهم!

(٤٨)

المدير العام في اجتماع هام!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

تجمَّعَتْ لديّ وُرَيْقاتٌ في أدب الوَرْد كتبتُها في مُـدَدٍ وحِجـج أيـامَ كانـت تنهمرُ المِعْصِراتُ بالماء الثَّجَّاج، ويُرْغَمُ الفلاحُ على ملازمة بيته، فلا يعملُ ولا يظهر، ويمنعُ من ظهوره التعذّر!

وقد نَضِجَتْ هذه الوُرَيْقات، واستوت حتى بلغتْ مائة، واقترحَ مَنْ كنتُ أقرأها عليهم بأنْ أنشرَها؛ ففيها كما يقولـون زادٌ وبُلْغـةٌ ومَـدَدٌ، يُعـينُ الكَـلّ، ويُغيثُ الملهوف، ويمتّع الأفئدة.

وتوجّهتُ تِلقاءَ عَمّان، فسألتُ عن دُور النشر، فولجـتُ إحـداها، فلقـيني بالباب موظّفٌ شابٌ قال: ما تريد يا عمّ؟ هذه دار نشر، وليسـت مَطْعَمـاً، أو مَقْهى!

قلت: هي حاجتي لوريقاتٍ عندي أريدُ أنْ أجمعَها في كتاب، فَمَـنِ القـائم على الدّار؛ لأرى رأيه؟ فمدَّ يده فأخذَ الوُرَيْقات، وجعل يتصفّحها، وينظرُ إلى ملابسي القرويّة، كأنّما يشّك في صحةِ نسبتها إليّ، ثمّ مَطَّ شفتيه وقـال: هـي من قولِك أم من مَنْقولِك؟

قلت: هي لي، ومن قولي، وليس في العالمين مَنْ ينازعني عليها!

قال: يا عمّ، القائم على الدّار هو المدير العام، ولا تستطيعُ مقابلتـه؛ لأنّـه في اجتماع هام!

قلت: أفأنتظرُ إذن؟ أم تسمحُ لي بالدخول عليه؟ فأنا من قرية نائية، والمسافة جِدّ بعيدة.

قال: انتظرْ، وغيّبْ نفسَك في السُّوق ساعتين، فعسى أنْ ينتهيَ الاجتماع الهام.

ثمّ خرجتُ فدفنتُ نفسي بين المارّة في "شارع السَّلط"، وغيّبتُ أعضائي في رُكام البضائع، ورجعتُ أحملُ بين يدي "هَريسة"، فقلت:

– يا بنَ أخي، هذه "الهريسة" لفمِك، واللهِ، ما جئتُ بها رِشْوةً لك، وإنّما شَقَّ عليَّ أنْ أراكَ محبوساً مع الكتب بين جدرانٍ أربعة، لا تأكل ولا تشرب!

قال: أنت قرويّ طيّب القلب، كريم النفس، تصدّق ما يُقال لك. يا عمّ، ليس هنالك اجتماع، وإنّما هي أوامر المدير العام: قولوا لِمَنْ لا تعرفونه، أو تتوقّعون أنّه يُزعجني: المدير في اجتماع!

وإكراماً للحيتِك و"شماخك" الأحمر سآخذك إليه، فدخلَ ودخلتُ، وسلَّمَ وسلَّمتُ، وقعدَ ووقفتُ، فقال المدير: يا حجّي، امشِ، الله يفتح عليك، نحن لا نعطي المتسوِّلين!

قال الموظّف: عفواً، سيدي، هذا العمّ ليس مُتسوّلاً، بل يزعم أنّه مُؤلّف في الأدب!

وأخذَ الوُرَيْقات فوضَعها أمام المدير، فلبسَ نظارته، وجعلَ يُقلِّبُ الصّفحات، ويقرأ بعضَ الأسطر والفِقْرات، ثمّ قال:

– عال العال، أنتَ يا بدويّ، مُسطِّرُ هذا الجمال، ومُفَتِّقُ هذه الأكمام؟!

قلت: إي وربّي، أنتجتْها بناتُ أفكاري، وتشهدُ على ذلـك بنـاتُ نَعْـش، وبناتُ آوى!

قال: ولكننا لم نسمعْ بك من قبل، وليس لك ذِكْرٌ في أدباء البلد، هل أنتَ عضو في اتحاد الأدباء، أو في رابطة الكُتَّاب؟ قلت: لا.

قال: هل أنتَ عضو في جمعية أدبيّة، أو في مُلتقى ثقافيّ؟

قلت: لا، لا، أين أنا من عَمَّان التي تصنع الثقافة والشُّهرة؟!

قال: أرأيتَ، لستَ معروفاً، وبناءً على ذلك، أعتذرُ عـن نشـر وُرَيْقاتِـك، فاذهبْ بها، واقرأها على أطفالِ حارتِك تحتَ شجرةٍ من أشجارك، ثمّ انْقَعْهـا في ماء النَّبْع، واشربْها!

وغَرِقَ في ضحكٍ متّصل، وهو يضربُ كَفَّهُ بكـفّ الموظّـف، ويهتـزّ فـوق كُرسيّه مثل الرَّجَّاج!

فقلت: أيّها المدير الضّاحك، أجمعَ نقّادُ الأدب على معالجة الـنصّ، لا محاكمـة الـنفس، وورد في الـذّكر الحكـيم نَهْـيٌ عـن الـبَخْس، بَخْـس أشـياء النـاس وأفكارهم وحقوقهم؛ إذ إنَّ بَخْسَ الناس خُلقٌ ذميم لا يصدرُ إلا عن مُطفِّـف أو طمّـاع أو مُتكبّـر، يقـول الله تعـالى: "﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴿٨٥﴾﴾ **[الأعراف:٨٥]**

فاعتدلَ المدير، وكلحَ وجهُه، وهو ينقرُ بأصـابعه علـى مكتبـه، فأكملـتُ: ومِنْ بَخْس الناس رَمْيُهم بالجهل والنقص، واحتقارُهم وازدراؤهـم، وبخاصـةٍ إذا كانوا جديرين بالاحترام والتقدير، والنبيّ ﷺ يقول: "لـيس مـن أمّـتي مَـنْ لم يُجِلَّ كبيرَنا، ويرحَمْ صغيرَنا، ويعرفْ لعالِمِنا حَقَّه".

يا مدير، على دُنياك السَّلام، فما أكثرَ مَنْ يُوسَّد إليه الأمـر، وهـو صـغيرُ العقل، قليلُ التَّجْرِبة، سخيفُ الرَّأي، لا يعرفُ عن نفسِـه: ذهبَهـا، ومـذهبَها، وذَهابَها! وها نحن نراهم رأيَ العين!

قال: سامحك الله يا حاجّ، مسحتَ بكـرامتي الأرض، ونشّـفتَ الـدّمَ مـن وجهي!

قلت: أنتَ أردتَ هذا، وقفتَ بباب بَياني مُتسوِّلاً، فأعطيتُك حَشَفاً وسُوءَ كِيْلَة، ولم أشأ أنْ أخصَّك برقيقِ حواشيه، أو رخيمِ مغانيه، وجزاءُ سـيِّئةٍ سـيِّئةٌ مثلُها!

فقام يعتذر إليّ، ويُلحّ عليّ أن أعطيَهُ الوُرَيْقات لينشرها، فأبيـتُ وقلـت: وُرَيْقاتي ليستْ مهمّة، المهم أنْ تظلّ أنتَ في اجتماعِك الهـام لخدمـة الصَّـالح العام!

والمهم أنْ تحتفظَ بلافتة مَكْتبِك: "ممنوع الدّخول لِمَنْ ليس له عَمَل رَسْميّ"!

(٤٩)

موسم الهِجْرة إلى العَاصِمة؟!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

فوجئتُ ذاتَ سَحَر بحركةٍ دائبة، وَوَقْع خُطى، فنفَّضْتُ عنّي النّوم، وقفزتُ واقفاً، وقلت: لَقد هَرَّت بِلَيلٍ كِلابُنَا، أَذِئْبٌ عَسَّ، أَم عَسَّ ثعلبُ؟

وأدرتُ عينيّ، فإذا هو ابني "هبوب الرّيح"، يجرُّ حقائبه، ويحرّكُ يديه جانباً عالياً!

فقلت: ما تفعلُ في هذا الليل البهيم، ولمّا تطلعْ نجمةُ الصُّبح، وقد أزعجتَ الحارة والقرية؟

قال: بل طلَعَتْ نجمةُ صُبْحي، فأنا الآن ذاهبٌ في فِجاج الأرض أستهدي بضيائها، والقريةُ كلّها مُستيقظة تُودِّعُ أبناءها، وتَلْثُمُ خدودَهم، وتدعو لجيبوبهم بالثّراء والرّخاء، وكما ترى فإنّي أُجْري التمارين "السُّويدية" إحماءً رياضيّاً، واستعداداً للانطلاق الكبير!

قلت: أمرٌ دُبِّرَ بليل، فأين تذهبون؟

قال: قد حانَ موسمُ الهجرة إلى عَمَّان، بعدما رأيتَ بأمّ عينِك ما لقينا من عَناءٍ وعَنَتٍ في البحث عن وظيفة في القرية وما حولها، وها أنذا منذُ أربع سنين أرْبِضُ على فراشي كما يَرْبِضُ البعير، وما في نفسي موضعٌ إلا وفيه رميةٌ من ألم، أو طعنةٌ من كآبة، أو ضربةٌ من حسرة!

فهل تريدُ أنْ تتناثرَ أشلائي، وأنا رابضٌ على فراشي؟!

قلت: وماذا في عمّان لقرويّ مثلِك لا يحمل إلا الثانوية العامة؟

قال: ذهبَ أناسٌ إلى عَمَّان لا حَظَّ لهم من العلم أو المال، فاحتضَنَتْهم بين ذراعيها، وأعطتْهم شهادةَ علم، وصندوقَ مال، وشَقَّة فاخرة، وزوّجتْهم من الحِسان، وصارَ بعضُهم مِمّن يُشارُ إليه بالبَنان، وقائمتُهم طويلة، فيها فلان وفلان!

فإلامَ أظلُّ في هذا المنفى، أعيش على هامشِ الحياة، وقد وصلَ أهلُ عَمّان إلى أقصى أمانيهم، يأتيهم رزقُهم رَغَداً من كلّ مكان، وهم على سُرُر متقابلين في الحدائق والمسارح؟!

بصراحة يا أبي، عمّان: مَطْبخُ القرار، ودارةُ الثّقافة، وماركةُ التجارة، وصانعةُ الشُّهرة، والبعيدُ عن عَيْن عَمَّان بعيدٌ عن الدُّنيا الحُلوة الخَضِرة النَّضِرة، بعيدٌ عن الأسواق العامرة، والمباني الشَّامخة، والمراكب الفارهة!

بعيدٌ عن مراكز الدّوائر والخدمة، وآيةُ ذلك أنّك تسافرُ السَّاعات، وتقطعُ المسافات لتوقيع ورقة، ولو كنتَ في عَمَّان لوفّرتَ وقتَك وجُهْدَك ومالَك، فهي بحقّ بَنْكُ التوفير المطلق!

ولو كان قلمُك السيّال في عَمَّان لبلغتَ شأواً عظيماً، وتبوّأتَ مكاناً عَليّاً، أمَا وقلمُك اليومَ مغموسٌ في طينة القرية، وبينه وبين عَمَّان مائةٌ وخمسون ميلاً، فلا يعدو أنْ يكونَ يَراعاً قُدَّ من قَصَب، وقلمُ الأديب بغير عَمَّان مِغْزَلُ!

ألا تذكر حكايةَ أدبك أدب الوَرْد مع المدير العام صاحب دار النشر الذي ظنّك مُتسوِّلاً فطردَك؟!

ومَنْ يدري فلعلّي إنْ نزلتُ بعمّان أنْ أبُزَّكَ شهرةً، وآكـلَ الـدّنيا بأدبِـك، وأنتَ في كُوْخِك لا يشعرُ بك أحد، وأنا الذي أتهجّى الحروف، ولا أُفرّق بين الكُوع والبُوع!

قلت: ما رأيتُ اليومَ أعجبَ منك، وما سمعتُ أبلـغَ مـن لسـانِك، فمَـنْ عَلَّمَك هذا؟

قال: علّمتني الأيام والليالي!

قلت: أيـام "طـه حسـين" علّمتـك فصـاحةَ اللسـان، والمغـامرةَ في الشَّـرَف المَرُوم؟

قال: بل علّمتني أيامُ القرية، ولياليك "ليالي عابر سبيل"!

قلت: فلِمَ لا تنتظر، فلعلّ عَمَّـان ترحـلُ إليـك، وتأتيـك تُجَـرِّرُ أثوابَهـا، ويداعبُ وجنتيك نسيمُها؟

قال: انتظرتُ فلم تأتِ، ولا بُدَّ من عَمَّان، وإنْ طالَ السّفر!

قلت: انطلقْ راشداً، ولا تنسَ قريتك؛ فهي مَسْـقِطُ رأسِـك، ومـن ثُراهـا نسيجُ عظامِك.

فما أتممتُ وصيّتي حتى تدّفقَ على الدّار عشراتُ الشّـبَان، كأنّمـا جـاءوا يزفّونه، وتعالَتْ أصواتهم: هبوبَ الرِّيح، هبوبَ الرِّيح، جاءت الحافلة..

فانطلقَ مُترنِّماً، وهم يُردّدون وراءه، ويلوّحون بأيديهم ومناديلهم:

نزلَتْ عليـكَ سكيـنةُ الأنـداءِ وطهــارةُ الشُّهـداءِ و الأمناءِ
أردنُّ يا وطـني ويا روحـي ويا قَمَري المنيرَ ويا ضيـاءَ سمائي

مشَتِ الحضارةُ في ربوعِك تزدهي بجمالِ روحِـك مِشْيةَ الحسناءِ!

فلحقتُ بهم، وقد تحرّكَت الحافلة فقلتُ لهم:

- سَلِّموا على عمّان، على مسجدِها الحسينيّ ومُـدرّجها الرُّومـانيّ، علـى جبالها وأحيائها، على القلعة ورَغَدان والمحطّة:

فلها المـودّةُ والمحبـةُ والهـوى ولها عتيـقُ العِشْقِ في أحشائي!

(٥٠)

تَسْبيح وتَـأْويب في الرِّيف العَجيب!

حدّثنا ابنُ الفلاح النَّشْميّ قال:

كنتُ إذا حَلَّ الرَّبيعُ في القرية، وأتاها يختالُ ضاحكاً، ونشرَ عليها بساطَه السُّندسيّ، أُعطي عيني حظَّها في نهارِه من التمتّع بأجوائِه، والتلذّذ بجمالِه، والاسترواحِ بنسيمِه، وأجعلُ الدّنيا منظراً:

دُنيا معاشٌ للورى حتى إذا جاءَ الرّبيعُ فإنّما هي منظرُ!

حتى إذا أقبلَ ليلُه، ارتقيتُ سطحَ دارِ الطِّين، وجعلتُ المصحفَ عن يميني، والوسادةَ عن شمالي، واتكأتُ على جَنْبي أتأمّلُ السَّماء، نجومَها وكواكبَها، فضاءَها واتساعَها، وأمدُّ بصري إلى القرية، وما يحيطُ بها من جبال متطاولة، وأودية سحيقة، وأتلو قولَ الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ:١٠]

فأحرّك لساني أكلّمُ نفسي، وكأنّما أخاطبُ الأجرامَ فوقي:

سبحانَ الله!

لقد أعطى الله ﷻ عبدَهُ داودَ ﵇ فضلاً واسعاً لا يُقدّر من النبوّة، والزَّبور، وإلانة الحديد، وصُنْع الدُّروع، وأمرَ الجبالَ والطيرَ أنْ تسبّحَ معه، وتُرجِّع التسبيح إذا سبّح، وتردّد النشيدَ إذا أنشد، فأقامَ داودُ بصوتِه الجميلِ الرّخيم جلساتٍ كونيّةً من التَّسبيح تحضرُها الملائكة والكائنات، وتُردّدُ مقاطعَها الجبالُ الصُّلد، والطيورُ الصّافات، وتجاوبُه بكلِّ اللغات!

إنّها مزامير تصدحُ بتعظيمِ الله ذي الجلالِ والجمالِ والكمال.

إنّها أناشيد تتبتّلُ إلى الخالقِ البارئ المصوِّر إعظاماً وإخباتاً.

إنّها ترانيم تعزفُ على أوتارِ هذا الكون المنظوم الذي لا تفاوتَ فيه ولا فُطور.

وأطلقتُ قلبي من قَفَصِ جَسَدي، وقذفتُ به يحلِّقُ في الملكوت، وكأنّما يرجِّعُ مع نبيِّ الله داود، فتصاعدتْ من أحنائه كلماتٌ عُصِرَتْ من أسفارِ الأدباء:

يا الله،

أنتَ أهلُ الحَمْد والمجد، وأهلُ التقوى والمغفرة، لا أحصي عليك ثناء، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك، ولا أبلغُ حقَّك في التوقير والإجلال، مهما أوتيتُ من بلاغة وبراعة وبيان.

يا الله،

لو أنَّ البشرَ مُذْ كُتِبَ لهم تاريخ، وإلى أنْ تَهْمُدَ لهم على الأرض حركة، لو أنّهم نَسُوك، وكفروا بك ما خدشَ ذلك شيئاً من جلالِك، ولا نقصَ ذرّةً من سلطانِك، ولا كَفَّ شُعاعاً من ضيائِك، و لا غَضَّ بريقاً من كبريائِك.

يا الله،

إذا اتّجهَ الفكرُ يتأمّلُ في السَّماء، وسطَ عتمة الليل البهيم، حيثُ النّجومُ المتّقدة، وحيثُ رهبةُ السُّكون، وخشوعُ الكونِ المسكون، هنالك تبدو الآفاقُ المظلمة باسمةً مشرقةً بنورِك، ويغدو السُّكون نبراتٍ مُطربةً بأنسِك، هناك يعلنُ الفكرُ الخاشع: أنتَ أنتَ الله!

يا الله،

إذا اتّجهَ البصرُ إلى شاطئ البحرِ الخضمّ، وأرسلَ الطّرفَ حيث تختلطُ زرقةُ السّماء بزرقة الماء، وحيث تتهادى السُّفن في العُباب، وحيث تهبّ الزّوابع، وتتلبّد السُّحب، ويكفهرُ وجهُ الفضاء، هناك يشقُّ ضياؤكَ هذه الظلمات، وتصلُ بحبالِ عَوْنِك المكروبين اليائسين، وتجيبُ المضطرَ إذا دعاك، هناك يدقُّ الفؤاد: أنتَ أنتَ الله!

يا الله،

إذا اتجهت العينُ إلى الرَّبيع، ورأت المشهدَ البديع، ووقعَتْ على الأزهار الحلوة ذات الألوانِ الفاتنة، والرّوائحِ العَبِقة، وإذا سمعَت الأذنُ تغريدَ الأطيار، وأنغامَ الأنهار، وألحانَ الأشجار، هناك يَسْري في القلب صوتٌ نديّ طَلِيّ: أنتَ أنتَ الله!

يا الله،

جودُك دلّني عليك، وإحسانُك أوصلني إليك، وكرمُك قرّبني لديك، أسألُك ما لا يَعْسِرُ عليك، فأنتَ عليمٌ بحالي، غَنيٌّ عن سؤالي، أسألُك حُبَّك، وحُبَّ نبيِّك، وحُبَّ آلِهِ الطَّاهرين، وحُبَّ أصحابِه أجمعين.

تم بحمد الله

الفهرس



الكاتب في سُطور

- د. أحمد عطية السّعوديّ / ولد في الأردن ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م
- حاصل على الدكتوراة في الأدب والنقد سنة ١٩٩٧م

- أصدر مجموعة من المؤلفات في المجالات التالية:
- الإبداع الأدبي:

– ليالي عابر سبيل (سيرة ذاتية أدبية)

– أحماض أدبية (أدب ساخر/ حكايات فكاهية)

– مناسف أدبية (أدب ساخر/ حكايات فكاهية)

– أحلى الكلام (باقة قصصية حوارية للأطفال)

- الدراسات اللغوية والأدبية:

– شخصية الأديب والإبداع الأدبي (دراسة في الرؤى والتقنيات)

– ظاهرة الترخيم في الدرس اللغوي (دراسة نحوية تطبيقية)

– المنظومة الآجرومية في ثوبها الجديد (منظومة تعليمية في النحو العربي)

- الدراسات الإسلامية:

– يا أيّها الإنسان (نظرة تأملية في عالمية الخطاب القرآني)

– يا أيّها الناس (دراسة في عالمية الخطاب القرآني وجماليته)

– منهاج محاسبة النفس (مدارسة روحانية على ضوء الكتاب والسنة)

– الصّحابة مكانتهم وجهودهم (دراسة حديثية في التحمّل والأداء)

- للتواصل مع المؤلف:

– البريد الإلكتروني: dr.abuemam@hotmail.com

– صفحة الواجهة (الفيس بوك)/ د. أحمد عطية السعودي

– هاتف: ٠٧٧٧٤٣٨٤٢١